مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الدكتور أمجد الطرابلسي

مفكراً ومربياً وأديباً

١٣٤٦-١٤٢١هـ

١٩١٨-٢٠٠١م

تأليف

الأستاذ الدكتور محمود أحمد السيد

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

الدكتور أمجد الطرابلسي

مجمع اللغة العربية بدمشق

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الدكتور أمجد الطرابلسي

مفكراً ومربياً وأديباً

١٣٤٦- ١٤٢١هـ

١٩١٨- ٢٠٠١م

تأليف

الأستاذ الدكتور محمود أحمد السيد

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور أمجد الطرابلسي

١٣٤٦ - ١٤٢١هـ

١٩١٨ - ٢٠٠١م

المحتويات

- **تقديم** بقلم الأستاذ الدكتور مازن المبارك ١١

- **تصدير** ١٨

الفصل الأول- الدكتور أمجد الطرابلسي نشأة ودراسة وعملاً ٢١

أولاً- نشأة الدكتور الطرابلسي ودراسته ٢٣

ثانياً- الأعمال التي مارسها ٢٥

ثالثاً- سماته ٣٥

الفصل الثاني- الطرابلسي باحثاً ومؤلّفاً ٤٣

أولاً - نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة ٤٥

ثانياً - نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب ٥١

الفصل الثالث- الطرابلسي محاضراً ٥٧

أولاً- من محاضرات قبل عام ١٩٥٦ .... ٥٩

ثانياً- من محاضرات عام ١٩٥٦ .... ٦١

١ - محاضرة تأملات وذكريات في حرم المسجد الجامع في قرطبة ٦١

٢ - محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ٦٥

أ- المحاضرة الأولى: الشعر الحماسي قبل إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ .... ٦٦

ب- المحاضرة الثانية بين إعلان الدستور وخلع عبد الحميد ٦٨

ج- المحاضرة الثالثة: من خلع السلطان عبد الحميد حتى إعلان الحرب العالمية الأولى ٧٠

د- المحاضرة الرابعة: الفترة الأولى من الحرب العالمية الأولى ٧٢
وشهداء السادس من أيار عام ١٩١٦

هـ- المحاضرة الخامسة: الفترة الثانية من الحرب العالمية الأولى ٧٣
(الثورة العربية وذيولها)

و- المحاضرة السادسة: ميسلون ٢٤ تموز ١٩٢٠ .... ٧٥

ز- المحاضرة السابعة: فترة اليأس التي أعقبت ميسلون ١٩٢٠- ١٩٢٥.. ٧٨

ح- المحاضرة الثامنة: الثورة السورية ١٩٢٥- ١٩٢٦ .... ٨٠

الفصل الرابع- الطرابلسي محققاً **٨٥**

أولاً - زجر النابح (مقتطفات) ٨٧

ثانياً - تحقيق رسالة (الصاهل والشاحج) ٩٢

الفصل الخامس- الطرابلسي شاعراً **٩٩**

أولاً- مضمون كان شاعراً ١٠٢

١- قسم الروحانيات **١٠٣**

٢- قسم الأوابد **١٠٧**

٣- قسم القوميات **١٠٩**

٤- قسم تأملات **١١٧**

أ- الأسطورة: خلود الذكر ١١٧

ب- بين صحراوين ١١٧

ج- أحب ولا أحب ١١٧

د- زهرة الشوق ١١٩

هـ- أصوات وأضواء بحثاً عن النور ١١٩

و- إعصار ١١٩

ز- احترق.. احترق ١٢٠
ح- وحدة ١٢١
ط- أمام تمثال ١٩٤١ .... ١٢١
ي- الرجل الساندويتش ١٢٢
٥- قسم عبرات ١٢٢
أ- خيال أمي غاب عني ١٢٢
ب- مصرع الصقر ١٢٣
ج- في رثاء شفيق حبيب ١٢٤
د- عدنان المالكي ١٢٤
هـ- غربتان ١٢٥
٦- قسم ذاتيات ١٢٥
أ- المصباح ١٢٥
ب- اللحن المخنوق ١٢٦
ج- أنتِ.. وأنا ١٢٧
د- سراب ١٢٧
هـ- أحب فيك ١٢٧
و- الفصول الثلاثة ١٢٨
ز- عيناكِ عيناكِ ١٢٨
ح- ترنيمة ١٢٩
ط- مراكش الحبيبة ١٢٩
ي- همسات في أذن صورة ١٢٩
ك- دُعابة ١٢٩
ل- يا أميرة ١٣٠
ثانياً- من سمات شعر الطرابلسي ١٣٢

الملحق- الكلمات التي ألقيت في حفل تأبين الدكتور أمجد الطرابلسي ١٣٥

١- كلمة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق . ١٣٧

٢- كلمة الأستاذ الدكتور محمود السيّد وزير التربية ١٥٣

٣- كلمة الأستاذ الدكتور عادل العوّا ١٥٨

٤- كلمة الأستاذ الدكتور عبد الله عبد الدايم باسم أصدقاء الفقيد ١٦٥

٥- كلمة أسرة الفقيد ألقاها الأستاذ المهندس محمد أيمن الطرابلسي ... ١٧٣

تقديم

الدكتور أمجد الطرابلسي، كنت مذ عرفته أتوق إلى كل كلمة تقال فيه أو تروى عنه، فلقد أحببته لما ترك في نفسي وفكري من آثار لا يمحوها الزمان.

كان أستاذاً في ثانوية جودة الهاشمي حين دخلتها طالباً... وكنت أسمع ما يقوله طلاّبه عنه- ولم أكن منهم- من كلمات الحبّ والإعجاب.

وكان أول لقاء به حين أقامت المدرسة حفلاً خطابياً في إحدى المناسبات الوطنيّة، فدعاني الأستاذ محمد البزم- وكنت من طلابه- وقال: أعط هذه الورقة للأستاذ أمجد وقل له إن البزم يريد أن تلقي هذه القصيدة نيابة عنه. ففعلت، وألقى الأستاذ الطرابلسي القصيدة فعرفت مقدار ثقة أستاذي البزم بالأستاذ الطرابلسي، وتمنيت أن أكون من طلابه.

ولم تتحقق أمنيتي إلا حين أصبحت طالباً في قسم اللغة العربية بكلية الآداب وكان الدكتور الطرابلسي رئيساً لقسم اللغة العربية وأستاذاً لنا درّسنا سنتين، تولّى في السنة الأولى منهما تدريسنا الأدب الجاهلي وفي الثانية تدريسنا النقد الأدبي.. وكان متميّزاً بلغته ونطقه وطريقة إلقائه، كما كان متميّزاً بانضباطه وسلوكه وحسن تصرّفه وحكمته في معاملة الطلاب. وإضافة إلى السنتين كنت واحداً من خمسة طلاب أشرف علينا الدكتور الطرابلسي سنة ثالثة في التدريب العملي في المعهد العالي للمعلمين (كلية التربية) نذهب بصحبته إلى المدارس لحضور دروس وإلقاء دروس في المدارس الإعدادية والثانوية مرة في الأسبوع، ونجتمع بعد ذلك ساعة في مكتبه لنناقش

الدرس الذي حضرناه أو ألقيناه، ولنستمع إلى ملاحظات أستاذنا وتوجيهاته العلمية والتربوية والسلوكية... ولطالما كنا ننتظر هذه الساعة لما نفيد فيها من علم وثقافة وأدب بكل معانيه. لقد كان – رحمه الله – ذا أدب جمّ وخُلق عال، ولم يكن يسمح لنفسه ولا لأحدٍ منّا أن نقول كلمة واحدة تسيء إلى من ألقى الدرس، ويقول: نحن نتحدّث عن الدرْس لا عن المدرّس، وعن العلم لا عن صاحبه، وعن المنهج والطريقة لا عمّن طبّق ذلك أو نفّذه!

كان الدكتور أمجد يحترم الإنسان أياً كان، يحترم طلابه، ويحترم سامعيه، كان كتلة إحساس إنساني مرهف وراق، يؤثر فيمن يصاحبه أو يجالسه بهيبته ووقاره، ويُعديه بما في نفسه من تلك المشاعر الإنسانية النبيلة! ولا أكتم أنني مدينٌ له بالكثير الكثير من علم وأدب وسلوك. ولقد رأيت منه مواقف لا أنساها؛ منها أنه استدعاني ذات يوم وسألني: أصحيح ما سمعته من أنك تجمع بين الدراسة والتدريس؟ قلت: نعم، وكنت طالباً في السنة الثالثة في كلية الآداب. قال ما الصف الذي تدرّس فيه؟ قلت: الكفاءة (أي الصف التاسع كما كنّا نقول). فطلب إليّ برنامج تدريسي وتوزيع الساعات، فكتبته له، فقال أخبر إدارة المدرسة أنني سأحضر درساً عندك في الأسبوع القادم. وحضر في الموعد واستمع إلى درسي كلّه، ثم شكرني وغادر المدرسة، ولقيني في الجامعة فأثنى على لغتي ودرسي وشرحي، وقال وهو يبتسم: لقد أذكرتني درس أبيك في مكتب عنبر...

ومنها أنه دعاني ودعا زميلي الأستاذ أحمد راتب النفاخ إلى الغداء في القاهرة حين كان وزيراً للتربية أيام الوحدة – رحم الله الوحدة وهيّأ للأمة من يعيدها – وأبى إلّا أن يأتي هو ليصحبنا لأنه صاحب سيّارة، كما قال، فمجيئه إلينا أسهل من مجيئنا إليه!!

ولو ذكرت مثل هذه المواقف لطال بنا الحديث، ولكن حسبي أن أقول: إن كل ما رأيته منذ عرفته، ينطق بما كان يتصف به من خلق قلّ نظيره، في جمعه بين التواضع والأنفة، واللين واللطف إلى الحزم والصلابة، والصدق والوفاء، والبعد عن المحاباة والرياء، والترفّع عن الصغائر، والحرص على إتقان العمل.

وأما عشْق العروبة وما إليها، وحبّ الفصحى والترنّم بها والاستمتاع بنطق حروفها، وأما الولاء لثقافتها، وغرس حبِّها في نفوس الأبناء والشباب.. فأمور هي منه الخُلق الملازم والطبع الأصيل.

ولست أكتم أن ما شدّني إليه، وجعلني أحبّه أستاذاً وإنساناً أنني رأيت كلّ ما يتكلَّفه غيره من الناس تكلّفاً، وما يمثّلونه ظاهراً تمثيلاً، هو منه حقيقة ولديه عقيدة، لا يتّصف به ليوصف به، ولا يتكلّفه لغيره، إنه الطبع لا التطبّع، والواقع لا التمثيل، إنه كان يعمل للحقّ لا للخَلق، ولما يؤمن به لا للشهرة ولا للظهور.

لقد رأيت في الدكتور الطرابلسي أستاذاً لا يُنسى، ومعلّماً ذكيّاً بنّاء يريد طلابه مثله عروبة واعتزازاً بالعروبة ولغتها، ويسعى إلى تعليمنا العلم، وتعليمنا كيف نتعلّمه؛ كان يهدينا إلى مصادر العلم، ويرشدنا إلى مناهج البحث، وإلى طرق الوصول إلى حقائق العلم، ونزاهة النقد، وسداد الحكم.

ورأيت فيه كما في غيره من زملائه في مكتب عنبر، مشابه من أساتيذه، وآثاراً من توجيه معلّميه الذين ذكرهم وأثنى عليهم، فعل غيره من زملائه في ذلك الحصن العربي الثقافي الوطني المعروف بمكتب عنبر.

ورأيت فيه مشابه كثيرة من أستاذه البزم الذي أحبّه، فلقد ذكر أنه لازمه في سنوات مكتب عنبر الذي انتسب إليه تلميذاً في العام الذي انضم إليه البزم أستاذاً، وأنه درس عليه سنتين.. ولاشك أنه صحبه بعد ذلك؛ فقد كانا معاً يعلّمان في ثانوية

جودة الهاشمي، وكانا يلتقيان ويتحدّثان عن «جحيم » البزم، كما سمعت ذلك من أستاذي البزم نفسه، وكان التأثر والتأثير، أو كانت العدوى أو القدوة، فإذا بالتلميذ مثل أستاذه عشقاً للعروبة وللعربية، ومثله أنفة وإباءً في الخُلق والسلوك، ومثله ترفّعاً عن سفاسف الأمور وصغائر الحياة.. ومثله فيما يفوح من شعره من أريج الحريّة وشذا العزّة والكبرياء.

لقد صدقت فيه فراسة أستاذه البزم؛ فقد كان يرى في تلميذه أمجد طالباً نابغاً في الفكر، متوقِّداً في الطبع، وكان يضرب المثل به لطلّابه.

ومن يقترب من الدكتور الطرابلسي يعلم ما لا يدلّ عليه ظاهره من عمل نشيط في مجالات ثقافية أو اجتماعية أو خيرية لا يظهرها ولا يُعلم بها أحداً، يقوم بها إيماناً بجدواها، لا طلباً للظهور بها أو للشكر عليها أو للثناء عليه بها!! وأنا أعرف من ذلك أمثلة لا مكان لها في هذه العجالة من التقديم. وحسبه أن أكثر طلابه لم يكونوا يعرفون أنه ينظم الشعر، ولولا قلة قليلة منهم كانت تطّلع على مجلة الرسالة التي يصدرها أحمد حسن الزيات في القاهرة لما عرف أحد منهم أن أستاذه شاعر موهوب، وأن شعره من طبقة عالية، لقد درسنا عليه ولازمناه سنوات ولم تجر على لسانه كلمة واحدة تشير إلى أنه يقول الشعر! ولذلك كانت مفاجأة لطلابه في الجامعة أنه «كان شاعراً !»[1].

وكان لا يفتأ يغرس في طلاّبه الشباب الجامعيين حبّ العلم، والغوص على التراث، ومعرفة العلماء الذين شاركوا في صنعه وبناء الحضارة العربية الإسلامية، وكان يحثّنا على الاعتزاز بالتراث، ومعرفة ما فيه، دون أن نقف عنده، يدعونا إلى التبّصر بما فيه ووعيه، والتطلّع إلى المستقبل بتفاؤل وإيمان.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في ص:٩٧.

تلك كانت رسالة الدكتور الطرابلسي (المعلِّم)، لم يتوان فيها ولم يقصّر في القيام بها سواء حين كان معلّماً في المدارس الثانوية أو أستاذاً في الجامعة، أو وزيراً للتربية. وسواء أكان في سورية أم في المغرب، وسواء أكان قريباً من مجمع اللغة العربية الذي انضم إليه بمرسوم صدر عن رئيس الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٠، أم كان بعيداً عنه في مغتربه.

وقد كان في المغرب، منذ حلّ فيها عام ١٩٦٢ منارة جامعيّة، وهب حياته للجامعة وما يتطلّبه العمل الجامعي من تأسيس وتعليم وإشراف، وبقي فيها ثلاثين سنة، شهد له فيها معاصروه من زملائه وطلّابه أنه كان من روّاد التعليم الجامعي وضعاً للخطط والمناهج، وتأصيلاً للهويَّة والمسار.

ولقد هيّأ الله للدكتور الطرابلسي رجالاً أوفياء، كتبوا عنه، وخلّدوا صفاته بما ذكروه عن تميّزه بالعقل المستنير، والفكر الأصيل المنفتح، والسلوك القدوة في علمه وتعليمه، وفي إدارته وخُلقه وسلوكه، وفي وطنيّته وقوميّته، وصدرت، بعد وفاته، كتب في المغرب وفي الشام، تتحدّث عنه، وتنشر ما رأى أصحابها فيه من صفات الرجولة والعروبة والإنسانية، مما جعله رمزاً من رموز الثقافة العربية في الوطن العربي الكبير، ورمزاً من رموز التعليم الجامعي، وقدوة في بناء الرجال والعلماء في منهجه في الإشراف على رسائل الدراسات العليا، وفي الوفاء للأمة وتراثها والتطلّع إلى مستقبلها.

وقد وضع الزميل الدكتور محمود السيّد بتكليفٍ من المجمع هذا الكتاب عن حياة الدكتور الطرابلسي ونشأته وسماته، وعن آثاره المؤلَّفة والمحقَّقة، وتحدّث عنه باحثاً ومؤلِّفاً ومحقّقاً ومحاضراً وأستاذاً ومجمعيّاً وشاعراً، وكشف جوانب كثيرة من إنسانيّته التي تبدّت في كل خطوة من خطواته، وكلِّ عمل من أعماله، وكلِّ علاقة من علاقاته في البيت وفي المدرسة وفي المجتمع.

وألقى الضوء في كثير من صفحات كتابه على جوانب مهمّة ومنيرة لا يعرفها كثيرون ممن عاصروا الدكتور الطرابلسي، من ذلك الإشارة إلى الرسالة التي نال بها الدكتور أمجد درجة الدكتوراه وما فيها من علم غزير[1]، وتأصيل لمفاهيم تدور حول الشعر وأصالة النقد الأدبي القديم ونسبه العربيّ، وبيان مقوّمات الذات العربية الإسلامية في تراثنا النقدي الأدبي.

ومنها ما يتصل بالنزعة العربية المتأصّلة عند الدكتور الطرابلسي والمتطلّعة إلى الوحدة وما فيها من عزّة ومجد، وما تشكّله من خطوة نحو عودة الحياة إلى أمة تقوم بأداء دورها في صنع الحضارة:

أدنى مُنانا دولةٌ عربيّة   شمّاءُ ترأبُ صَدْعنا وتُوحِّدُ

ومنها ما يتّصل بشاعرية الطرابلسي وسماتها وخصائصها.

إن هذا الكتاب الذي وضعه الدكتور السيّد يقدّم مثلاً رائعاً لمعلّم مجمعيّ بنى وغاب بعد أن أرسى أصولاً وترك لنا بآثاره وأعماله قدوة ورمزاً لكل مثقّف عربيّ مخلص صادق الولاء لأمتّه، يسعى إلى بناء جيل مؤهَّل قادر على استلهام التراث والنظر إليه بحبّ وإعزاز، وعلى السير المتوازن والمواكب لمسيرة الحضارة التي ينبغي لنا المشاركة في صنعها، لاستعادة مجد أمّتنا وإنتاج حضارة عربية إسلامية ماجدة متميزة.

إنه كتاب يفتح الباب واسعاً لدراسة الدكتور أمجد الطرابلسي من جميع جوانب شخصيته الفكرية والعلمية:

لدراسته رجلاً من رجال الفكر، ناشطاً في جميع نواحي الحياة العلمية والتعليمية، والثقافية، والاجتماعية، والعربية الوحدوية.

---

(١) وضعها د. الطرابلسي باللغة الفرنسية ثم عرّبت بأخَرة.

ودراسته معلِّماً ومرشداً ينشئ العقول ويبني الرجال.

ودراسته مؤلِّفاً ومحقّقاً، ذا منهج علميّ متميّز بالمنطق والدقة والأمانة.

ودراسته شاعراً بين الشعراء، عبّر في شعره عن آماله التي هي آمال أمته، وعن آلام أمّته التي هي آلامه، وكان من السابقين إلى التجديد في الشكل وفي الموسيقا.

شكر الله للدكتور السيّد جهوده، ورحم الله الدكتور الطرابلسي، ورحم من سمّاه «أمجد».

وكل الشكر لمجمع اللغة العربية، لوفائه لرجالاته من العلماء العاملين.

مَازن المبَارَك

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير المؤلف

يعد الدكتور المجمعي أمجد الطرابلسي رحمه الله علماً من أعلام الفكر في النهضة المعاصرة لأمتنا العربية، إذ إنه كان أديباً مجلّياً في حلبتي الشعر والنثر، وأستاذاً لامعاً في عمله الجامعي في سورية والمغرب، حيث تخرّجت على يديه أفواج من الباحثين والعلماء، ووزيراً مرموقاً إبان الوحدة بين سورية ومصر، إضافة إلى كونه عالماً محققاً ومحاضراً وباحثاً ومؤلفاً.

اتسم بتميزه في مراحل دراسته كافةً، وظلَّ هذا التميز مرافقاً له وجزءاً من شخصيته في مجالات عمله كافة، وكان وفياً لوطنه وأمته ولغتها الخالدة، إذ يضرب به المثل في الحرص على استعمال لغته العربية ناصعةً في عباراتها، وعذبة في أساليبها، ورشيقة في تناولها، فكان عاشقاً للغته العربية، يهواها بقلبه ووجدانه، ويكلؤها بعقله ولسانه.

أشاد عارفوه بأخلاقه العالية التي كان يتحلى بها، إتقاناً في عمله، والتزاماً بمواعيده، وإباءً في عزة نفسه وشموخها، وحرصاً على صون العلم والحفاظ على مكانته، ومثالاً في نزاهته وصرامته العلمية ورحابة فكره وسعة ثقافته، وقدوة في انتمائه إلى أمته واعتزازاً بقيمها وتراثها وحضارتها وماضيها ومستقبلها.

وطالما ذكر طلابه أنهم تعلموا منه الصبر والمجاهدة، وقوة الاعتزاز بمجد الأمة العربية والإبحار وراء كنوز أدبها العربي القديم، كما أنهم اكتسبوا من شخصيته،

مواقف وسلوكاً، شموخ التواضع، وتواضع الشموخ، حيث كان مدرسة في صراحة الرأي، والسمو عن الصغائر والسفاسف، والزهد عن الشهرة، والصلابة في الدفاع عن قناعاته ومبادئه، وعلو الهمة، وعفة اللسان.

ويقدّم هذا الكتاب في فصوله الخمسة صورة مجملة عن بعضٍ من جوانب حياة الدكتور الطرابلسي، حيث اشتمل الفصل الأول على نشأته ودراسته والأعمال التي مارسها في حياته، والسمات التي تحلت بها شخصيته كما تبدّت لدى طلابه وزملائه وعارفيه.

واشتمل الفصل الثاني على نتاجه في مجالي البحث والتأليف متمثلاً في رسالته ذات العنوان «نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة»، وفي تأليفه «حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب».

وتضمن الفصل الثالث مضمون عدد من المحاضرات التي ألقاها على طلبة الدراسات العليا في المعهد العالي للدراسات العربية في القاهرة، وتدور حول الشعر الحماسي في بلاد الشام إبان الاحتلال العثماني والانتداب الفرنسي والثورة السورية.

وكان عمل الطرابلسي في التحقيق موضوع الفصل الرابع حيث عرض لتحقيق زجر النابح ورسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري.

أما الفصل الخامس والأخير فقد عرض لمضمون ديوانه الشعري ذي العنوان «كان شاعراً»، وقد اشتمل على ستة أقسام هي (الروحانيات، الأوابد، القوميات، تأملات، عبرات، ذاتيات)، وكان ثمة عرض للمقطوعات الشعرية التي تضمنها كل قسم من هذه الأقسام الستة.

وعرض الملحق في هذا الكتاب للكلمات التي ألقيت في الحفل التأبيني لراحلنا، وآمل أن أكون قد وفقت في تقديم صورة واقعية عن حياة فقيدنا الذي

أوفى فكان نموذجاً في الوفاء، وأعطى أمته عصارة فكره ومعرفته، فكان قدوة في العطاء والإيثار، فحفلت حياته بسمو القيم، وعظمة الأداء، وعمق الانتماء.

ولا بدَّ لي من أن أتوجه بالشكر للآنسة ريم القزاز على تنضيدها لهذا الكتاب، وللمهندس مازن الغراوي على إخراجه، فلهما مني كل الشكر والتقدير.

رحم الله عالمنا الجليل الدكتور الطرابلسي الرحمة الواسعة، سعة ما قدّمه لوطنه وأمته من وافر العطاء، ونزاهة السيرة العطرة وعفافها، ولتكنْ هذه السيرة معلماً تهتدي به الأجيال من أبناء الأمة في علو الهمة، وقوة الإرادة، وصدق الانتماء، ونبل السجايا، ووفرة العطاء.

والله الموفق

المؤلف

دمشق في ٢٢ جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ

٢٢ نيسان ٢٠١٤م

الفصل الأوّل

الدكتور أمجد الطرابلسي نشأة ودراسة وعملاً

الفَصْلُ الأوَّلُ

الدكتور أمجد الطرابلسي نشأة ودراسة وعملاً

نحاول في هذا الفصل أن نتعرف نشأة الدكتور أمجد الطرابلسي ودراسته، وأن نقف على الأعمال التي مارسها في حياته، وأن نشير إلى السمات التي ميزت شخصيته كما تبدى ذلك في شهادات معاصريه وعارفيه.

أولاً- نشأة الدكتور الطرابلسي ودراسته

ولد أمجد بن حسني بن محمود الطرابلسي في حيّ باب السريجة (القنوات) بدمشق في العاشر من شهر رجب ١٣٤٤هـ الموافق لـ ١٣ أيار ١٩١٦م، إلا أن تسجيله في السجلات الرسمية بالدولة كان عام ١٩١٨م.

كان أبوه ضابطاً في الجيش العثماني ثم ضابطاً في الجيش الفيصلي بعد تحرّر بلاد الشام من الاستبداد التركي، وكان جدّه من طرابلس الشام وإليها ينتسب، وقد اقترن ابنه الضابط حسني بإحدى فتيات أسرة عمر باشا الدمشقية.

وشاءت الأقدار أن يعاني الطفل أمجد اليتم في طفولته المبكرة، فها هو ذا يفقد أمه عام ١٩١٨، ويفقد أباه عام ١٩٢٥، ويتذكر رؤيته لأبيه وهو في السادسة أو السابعة من عمره قائلاً: «كان أبي متقناً للعربية، ومتقناً للتركية، وملماً بالفرنسية والألمانية، ويخيّل إلي أنه كان ذوّاقة للأدب، إذ ما أزال أذكر أني رأيته وأنا طفل في السادسة أو السابعة من عمري ينسخ بخط يده رباعيّات الخيام العربية من نسخة أعاره إياها أحد أصدقائه».

ويقوم جدّ الطفل أمجد وأعمامه بكفالته بعد فقدانه والديه، ويرسل إلى كتاتيب دمشق ليتعلم القراءة والكتابة، ومن ثم ساقته الكتاتيب إلى المدارس الرسمية. وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية عام ١٩٢٦ التحق بمكتب عنبر، وهو الثانوية الوحيدة في دمشق عام ١٩٢٧.

وفي هذا المكتب تخرّج نفر من علماء الأمة وأدبائها وشعرائها ومن الثائرين والمصلحين، وكان لأساتذته الفضلُ في رعاية المواهب وتنميتها. ومن الأساتذة المجلّين والأدباء المرموقين الذين نهل الطالب أمجد من معينهم: الأستاذ عبد القادر المبارك، والأستاذ سليم الجندي، والأستاذ محمد البزم، وهؤلاء الثلاثة كانوا أعضاء في المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية اليوم)، وكانوا علماء أفذاذاً بكل ما تحمل كلمة عالم من معنى علماً ومعرفةً وخلقاً وتواضعاً.

وعلى أيدي هؤلاء العلماء المرموقين تلقى الطرابلسي العلم بكل جديّة ومثابرة واجتهاد وحرص على التفوق، فنال الشهادة الثانوية (البكالوريا) من قسم الفلسفة عام ١٩٣٤، وانتسب عام ١٩٣٦ إلى صف المعلمين العالي، وحصل على شهادته بكل جدارة وتفوق.

وتعلن وزارة المعارف عام ١٩٣٨ مسابقة لإيفاد الناجحين فيها إلى فرنسا للتخصص في الأدب، وكان الطرابلسي من الناجحين في تلك المسابقة، فسافر إلى فرنسا في أواخر تلك السنة، وتابع دراسته فحصل على الإجازة (الليسانس) في الآداب عام ١٩٤١، ولم يتمكن من العودة إلى الوطن لأن الحرب العالمية الثانية فاجأته بعد أن نشبت عام ١٩٣٩، وهو يحضّر لنيل شهادة الإجازة، فما كان منه بعد أن نالها إلا أن أخذ يحضّر لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي في جامعة

السوربون بباريس، وكان المشرف على رسالته للدكتوراه العالم الفرنسي (ريجيس بلاشير)، وكان موضوع الرسالة: النقد الشعري عند العرب حتى القرن الخامس الهجري:

La critique de la poésie Arabe jusqu'au 5ème siècle Hégire.

وقد كتبت الرسالة باللغة الفرنسية وناقشها عام ١٩٤٥، ونال شهادة الدكتوراه إثر مناقشته لها ليعود إلى وطنه في ذلك العام نفسه.

جمع الطرابلسي في دراسته بين الثقافة العربية والإسلامية التي نشأ عليها إبان دراسته في مكتب عنبر، وبين الثقافة الغربية التي عاصرها إبان دراسته في جامعة السوربون بباريس في أثناء تحضيره للدكتوراه، وهكذا كانت الأصالة والمعاصرة تتجليان في نتاجه وشخصيته وآرائه ومواقفه كافة.

ثانياً- الأعمال التي مارسها

مارس الطرابلسي في مسيرة حياته الأعمال الآتية:

١- عمل معلماً بعد حصوله على الشهادة الثانوية في قرية جبّاتا الزيت بمحافظة القنيطرة، وكان ذلك سنة ١٩٣٥م.

٢- وعمل مدرساً للغة العربية في ثانوية الكلية العلمية الوطنية بدمشق بعد حيازته شهادة المعلمين العليا سنة ١٩٣٧م.

٣- وعمل مدرساً في ثانوية التجهيز الأولى (جودة الهاشمي) بعد عودته من الإيفاد وحصوله على شهادة الدكتوراه سنة ١٩٤٥م.

٤- عيّن عام ١٩٤٦م أستاذاً لتدريس اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب بالجامعة السورية، إثر افتتاح كليتي الآداب والعلوم في هذه الجامعة على يدي المربي ساطع الحصري.

٥- استمر في عمله في هذه الكلية اثنتي عشرة سنة امتدت بين ١٩٤٦ و١٩٥٨م، وكان يَعُدُّ عمله خلال هذه المدة من أسعد سني حياته.

٦- بعد قيام الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨ اختير الطرابلسي ليكون وزيراً للتربية والتعليم في الإقليم الشمالي (السوري) من الجمهورية العربية المتحدة، ثم وزيراً للثقافة مضافة إلى التربية بعد ذلك، ثم وزيراً للتعليم العالي في الجمهورية العربية المتحدة بالقاهرة، ومارس عمله في هذه الوزارات بكل جديَّة وإخلاص وتفان وإيثار وشعور عال بالمسؤولية تجاه الوحدة بين سورية ومصر، وهو الذي وقف حياته للوحدة العربية وأمته العربية.

٧- زكّى كل من المجمعيين عز الدين التنوخي وجعفر الحسني ترشيح الطلب الذي وجهه الأستاذ الدكتور حكمة هاشم عضو المجمع العلمي العربي بدمشق إلى السيّد رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق بتاريخ ٧ آذار ١٩٦٠ على أن يحل الطرابلسي محلّ المرحوم الشاعر محمد البزم في المجمع، وجاء في كتاب الترشيح أن الطرابلسي علم من أعلام أدبنا العربي المعاصر، وكان منذ نشأته وما يزال من طليعة المجلّين في حلبتي الشعر والنثر، وخدم لغتنا الفصحى وعلومها وفنون بيانها طوال حياته العلمية والفكرية، فتخرجتْ على يديه أفواج من الطلبة والباحثين والعلماء، وأمدَّ المكتبة العربية بكنوز من الإبداع والنظر والتحقيق، هذا إلى خلق رضيّ، وضمير نقيّ، وعقيدة راسخة، هنّ جميعاً مضرب المثل بين أهل المعرفة والفضل.

وأشار الدكتور هاشم في الطلب إلى أن ضمَّ رصيف في مثل ألمعية الطرابلسي إلى عقد المجمع سيزيد في وزنه، ويعلي من شأنه.

ولقد انتخب المجمع الدكتور الطرابلسي في جلسته التي عقدها بتاريخ يوم السبت في ٢ ذي الحجة ١٣٧٩هـ الموافق ٢٨/ ٥/ ١٩٦٠م عضواً عاملاً في المجمع.

وصدر قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة ذو الرقم ٥٧ والتاريخ ١٤/ ٢/ ١٩٦١ بتعيين الدكتور الطرابلسي عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية، وتأخر موعد استقباله في المجمع، ثم دعا المجمع إلى استقباله في جلسة علنية عقدها مساء يوم الخميس في ٣/ ٨/ ١٣٩١هـ الموافق ٢٣/ ٩/ ١٩٧١م.

افتتح جلسة الاستقبال الأستاذ الدكتور حسني سبح رئيس المجمع، ثم ألقى الأستاذ الدكتور شكري فيصل كلمة الترحيب بالدكتور الطرابلسي تحدَّث فيها عن نشأته ودراسته وأعماله وبعض من سماته، وألقى بعدها الدكتور الطرابلسي خطاب الاستقبال متحدثاً فيه عن سلفه الأستاذ محمد البزم، فأبان أن البزم قارب العشرين، وهو لا يعلم من القراءة إلا بعض سور قصار من القرآن الكريم، ثم أوضح المعاناة التي كابدها البزم حتى غدا علماً من أعلام اللغة العربية، وشاعراً محلّقاً من شعرائها، وتحدّث في خطاب الاستقبال أيضاً عن منهجية البزم في تدريسه، وقدّم نماذج من شعره في الإباء والتمرد. واشتمل خطاب الاستقبال أيضاً على حديث الطرابلسي عن صلته القديمة بالمجمع العلمي العربي الذي كان يقع على طريقه بين الدار والمدرسة، وعن الاحتفالات التي كان يحضرها في المجمع والمحاضرات التي كان يستمع إليها فيه، وصوّر الحفل الذي أقامه المجمع عام ١٩٢٩ تكريماً للشاعر حافظ إبراهيم وبصحبته يومئذ الشاعر خليل مطران.

وكان الطرابلسي شديد الاعتزاز بانتسابه إلى مجمع اللغة العربية، إذ يقول: «وكيف لا أعتزّ بالانتساب إلى مجمع له في عنق كل عربي فضل، وفي كل ندوات العربية ذكر. أما أنا فقد كان لي هذا المجمع منذ تفتحت عيناي على أدب العرب، وتمرّس لساني بلغة العرب، وطناً في وطن، وأهلاً في أهل».

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة عشر سنوات فصلت بين تعيين الدكتور الطرابلسي

عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية عام ١٩٦١ وبين حفل استقباله في المجمع عام ١٩٧١، ولقد جاء في رسالة وجهها الدكتور الطرابلسي إلى الأستاذ الدكتور حسني سبح من مكان عمله في الرباط بالمغرب بتاريخ ٢٩/ ١٢/ ١٩٧٠ أن حرصه أي الطرابلسي على القدوم إلى دمشق بغية حضور حفل استقباله عضواً في المجمع لا يدانيه إلا حرصه على أن يؤدي بعض ما يجب عليه نحو أستاذه وسلفه محمد البزم الذي له عليه من الأيادي ما لا يحصى.

ولم يتمكن الدكتور الطرابلسي من ممارسة عمله المجمعي بسبب وجوده في خارج سورية، وقد وافق له المجمع على عدم حضوره جلساته لذلك السبب، إلا أنه لم يقطع علاقته بالمجمع، فكان يزوره في أثناء مجيئه إلى دمشق، فيجتمع بزملائه المجمعيين، ويناقش أعمالهم، ويتبادل معهم وجهات النظر في قضاياهم المجمعية.

وكانت جامعة محمد الخامس في الرباط ممثلة بمعهد الدراسات والأبحاث للتعريب قد أقامت ندوة عالمية موضوعها «التهيئة اللغوية والتنمية» بالتنسيق مع الجامعة التونسية ممثلة بمعهد بورقيبة للغات الحية، وذلك في معهد الدراسات والأبحاث بمدينة الرباط في المدة الواقعة بين ٢٦ و٣١ من تشرين الأول عام ١٩٨٠.

وكان الأستاذ المرحوم الدكتور حسني سبح رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق قد وجَّه رسالة إلى الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي يعلمه فيها بأن مجلس المجمع قد قرر المشاركة في الندوة على أن يقوم كل من الطرابلسي وعبد الهادي هاشم عضوَي المجمع بتمثيل المجمع في تلك الندوة.

وعلينا أن نشير أيضاً إلى أن عضوية الدكتور الطرابلسي لم تكن لتقتصر على مجمع اللغة العربية بدمشق، وإنما كان عضواً عاملاً في كل من المجمع العلمي العراقي ببغداد، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٨- آثر الطرابلسي أن يعتزل العمل السياسي بعد حدوث الانفصال بين سورية ومصر عام ١٩٦١، ولم يشأ أن يرجع إلى الجامعة السورية، وإنما توجه إلى العمل في المغرب العربي بناء على اقتراح المفكر المغربي الدكتور محمد عزيز الحبابي، حيث عمل الطرابلسي معه في كلية الآداب بالرباط، وكان ذلك في أواخر عام ١٩٦٢.

واستمر في عمله الجامعي في كليتي الآداب بجامعتي محمد الخامس بالرباط وسيدي محمد بن عبد الله بفاس من عام ١٩٦٣ حتى ١٩٩١، حيث درّس وأشرف على طلبة الدراسات العليا في شهادتي الماجستير ودكتوراه الدولة، وقد زاد عدد الرسائل التي أشرف عليها على ستين رسالة.

ولو ألقينا نظرة على موضوعات رسائل دكتوراه الدولة التي أشرف عليها في الجامعات المغربية لوجدنا التنوع فيها، إذ إنها تجمع بين القديم والحديث في جانب منها كما في «الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث» و«علم البديع في دراسات القدامى والمحدثين- دراسة تحليلية وتقويمية»، وثمة جانب منها يقف على العصر الحديث كما في رسالة «جيل الستينات في الشعر العراقي المعاصر» و«الخطاب الروائي العربي» و«البلاغيون العرب المحدثون وتطوير النقد الأدبي» و«النقد الأدبي الفلسطيني من فجر النهضة إلى سنة ١٩٤٨» و«القصيدة الدرامية في الشعر العربي المعاصر».

إلا أن أغلب الرسائل كانت تدور في فلك البلاغة والنقد العربي القديم كما في الموضوعات التالية:

- الأثر الأسطوري في البلاغة والنقد العربي إلى حدود القرن الثامن الهجري.
- مدخل إلى مقومات التذوق الجمالي في صنع المختارات الشعرية عند العرب من خلال المفضّليّات وحماسة أبي تمام.

- مدرسة الثعالبي في التراجم والدراسات الأدبية.
- علماء العربية في مواجهة أغاليط الشعراء حتى نهاية القرن السابع الهجري «دراسة وصفية نقدية».
- ضياء الدين بن الأثير: فكره النقدي والجدل الذي أثاره في عصره وبعد عصره.
- تحقيق كتاب «المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع» لأبي محمد السجلماسي.
- المصطلحات النقدية في كتاب «نقد الشعر» لقدامة بن جعفر.
- التركيب الصوتي في القرآن خصائصه ووظائفه.
- مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين- قضايا ونماذج ونصوص.
- التناسب والإيقاع الصوتي في النظم القرآني.
- البحوث الإعجازية وانعكاساتها في الدراسات البلاغية والنقدية في نهاية القرن الرابع الهجري.

أما موضوعات بحوث دبلوم الدراسات العليا فقد توزَّعت على ثلاثة أقسام:

١- **بحوث في التحقيق**: ومن هذه البحوث:
- تحقيق مخطوط روضة التعريف لابن الخطيب.
- تحقيق دراسة كتاب السحر والشعر للسان الدين بن الخطيب.
- تحقيق كتاب (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) لابن رشيق القيرواني.
- دراسة وتحقيق ديوان الصبابة لابن أبي حجلة.
- دراسة وتحقيق شعر الرثاء في السيرة النبوية لابن هشام.
- مصطلحات النقد العربي قبل القرن الثالث الهجري جمع وتحقيق ودراسة.

٢- **بحوث معاصرة:** ومن هذه البحوث:

- ظاهرة الشعر الحر في الأدب العربي الحديث من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧.
- الحكاية على لسان الحيوان في الشعر العربي الحديث.
- الصراع بين القديم والحديث في الأدب العربي الحديث.
- الكناية النقدية عند طه حسين.
- طه حسين والتثاقف العربي الأوربي.
- طه حسين الثائر الأدبي- الكتابة النقدية عند طه حسين.
- أدب ميخائيل نعيمة- دراسة للمؤثرات والمصادر.
- انعكاسات الآداب الأوربية القديمة في مسرح توفيق الحكيم.

٣- **بحوث تناولت موضوعات من القديم:**

أ- دراسات شعرية إحصائية من مثل:

- شعر كعب بن زهير دراسة إحصائية ونصية.
- شعر كعب بن مالك الأنصاري دراسة إحصائية ونصية.
- شعر قيس بن الحطيم دراسة إحصائية ونصية.
- في البنية الإيقاعية للشعر الجاهلي (علاقة البحر بالغرض) دراسة إحصائية.

ب- دراسات في البلاغة العربية والنقد:

- البحوث الإعجازية وانعكاساتها في الدراسات البلاغية والنقدية حتى نهاية القرن الرابع الهجري.
- بناء القصيدة العربية القديمة بين الوحدة والتفكك من خلال كتب المختارات الشعرية القديمة.

- الشاعر الجاهلي صاحب موقف نموذجان عنترة بن شداد وعروة بن الورد.
- ظواهر لغوية ومعجمية في شعر النابغة الذبياني.
- قضايا النقد الأدبي عند حازم القرطاجي.
- الرؤية البيانية عند الجاحظ.
- مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ.
- مدرسة الثعالبي في التراجم والدراسات الأدبية.
- محاولة في دراسة بعض مكونات الإيقاع في شعر البحتري.
- أثر ابن جني في الحركة النقدية حول المتنبي.
- شعر أبي تمام في دراسات المحدثين- دراسة وصفية ونقدية.
- علم البديع في دراسات القدامى والمحدثين دراسة تحليلية وتقويمية.
- التشبيه في الدراسات البلاغية والنقدية (دراسة وصفية تاريخية).
- ضياء الدين بن الأثير: فكره النقدي والجدل الذي أثاره في عصره وبعد عصره.

ج- دراسات في السير والتراجم:

- أحمد بن فارس حياته وآراؤه في اللغة والنحو.
- إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب: دراسة وتحليل.
- أبو علي القالي وأثره في الدراسات اللغوية والأدبية في الأندلس.

ولقد أبان الدكتور الطرابلسي منهجيته في الإشراف على طلبة الدراسات العليا قائلاً:

«حين أطرح على نفسي السؤال: ما هو الهدف الذي نطمح إلى أن يبلغه طلاب كلياتنا في دراستهم للأدب العربي إبداعاً ونقداً؟» لا أجد إلا جواباً واحداً هو: أن يستطيع الباحث الناشئ في نهاية المطاف الجامعي أن يجابه وحده أي نص كتب بالعربية في مرحلة من مراحل تطور أدبنا. والمجابهة تعني أن يكون هذا الباحث

قادراً على وعي النص بكلّ مخبّآته، ثم أن يكون قادراً على استقطار، بل استنزاف، هذا النص ليعطينا كل ما يمكن أن يُعطيه».

ويوضح المقصود من قوله «أن يكون الباحث قادراً على وعي النص» بأنه يدخل طبعاً في مضمون وعي النص أن يكون الباحث قادراً على قراءة النص قراءة جديدة بقدر الإمكان، أي قراءة متفتحة على معطيات النقد الحديث، وهذا يقتضي من الباحث في الأدب والنقد العربيّين القديمين أن يكون بعد تمكّنه طبعاً من أدوات بحثه العربية، منفتح الذهن، متابعاً لتيارات النقد الحديث. وقد تعمدت تقييد القراءة الجديدة بحدود الإمكان لأبعد التعسف الذي يقع فيه بعض الدارسين حين يريدون تقويم مفاهيم نقدنا القديم في ضوء المذاهب النقدية الحديثة، وقسر هذه المفاهيم، شاءت أم أبت، على الدخول في عنق الزجاجة، متناسين أن لكل عطاء فكري جذوره العميقة المتشابكة مع جذور ظواهر الحياة الأخرى السابقة والمعاصرة له، وأن استيراد نظريات جاهزة في زمن ما وفي مجتمع ما لتطبيقها اعتباطاً على نتاج زمان آخر أو مجتمع آخر هو مسلك خاسر سلفاً.[١]

وقد التزمت التزاماً مطلقاً بمبدأ الانطلاق دوماً من النصوص في مستوى تدريس الأدب والنقد، وفي مستوى الإشراف على أعمال الباحثين الشباب. أما في التدريس فلا أذكر في حياتي الجامعية على طولها أنني قضيت ساعة كاملة في تقرير موضوع نظري دون أن أخصّص نصيباً كبيراً من هذه الساعة لقراءة النص وتحليله وجعله المنطلق الوثائقي لكل التصورات والنتائج الحتمية أو المحتملة. وأما في الإشراف فإن نصيحتي الأولى والأخيرة للباحثين الشباب كانت وما تزال أن

(١) محيي الدين صبحي- الشاعر العلامة أمجد الطرابلسي والنقد الأدبي- حوارات في مجلة الوحدة - ١٩٨٨ ص١٦٦.

يعتمدوا في تأسيس بحوثهم وتوثيقها على النصوص القديمة تحليلاً واستنباطاً، وألا يقرؤوا ما كتبه المعاصرون حول الموضوع من قريب أو بعيد إلا بعد أن ينتهوا من مرحلة التأسيس والتوثيق، والتحليل والاستنباط، وحينئذ يقرؤون ما يقرؤون من كتابات من قبلَهم حول الموضوع قراءة نقدية فاعلة لا قراءة استلابية منفعلة.

وقد استطاع باحثونا الشباب في الجامعات الغربية في ضوء هذا السلوك أن يقدموا لمكتبة البحث العلمي الجامعي أعمالاً تتصف بالأصالة والجدية إلى حد يستحق التقدير.(١)

٩- أحيل الطرابلسي على التقاعد عام ١٩٩١، وأقام في فرنسا بعد إحالته على التقاعد إلى أن وافته المنية عام ٢٠٠١ رحمه الله حيث دفن في باريس.

ولقد توفي صباح يوم الأحد ٣ ذو القعدة ١٤٢١هـ الموافق ٢٨ يناير ٢٠٠١م ودفن في باريس يوم الأربعاء ٦ ذو القعدة ١٤٢١هـ الموافق ٣١ يناير ٢٠٠١م.

أما زوجته الفرنسية (مونيكا) فقد توفيت في باريس في شهر يناير عام ٢٠١٢ ودفنت فيها، وللطرابلسي أربعة أبناء ثلاث بنات وصبي، وقد ولدت ابنته الأولى سلمى عام ١٩٤٦ في دمشق وهي متخصصة بالترجمة الفورية، وولد ابنه سامي عام ١٩٤٨ وهو مهندس اتصالات، وولدت ابنته الثانية ناديا عام ١٩٥٠، وقد تخصصت بالأدب الانجليزي، أما ابنته الثالثة وليدة فقد ولدت عام ١٩٥٥، ويقيم سامي في لوفيرا. أما بناته الثلاث فيقمن في فرنسا. والأولاد الأربعة متزوجون ولسلمى بنت واحدة اسمها لبنى، ولسامي ولد واحد اسمه منذر، ولناديا ولد واحد اسمه جاك، ولوليدة بنت واحدة اسمها فنيسا.

(١) المرجع السابق ص١٦٧.

١٠- أقام مجمع اللغة العربية بدمشق حفل تأبين للفقيد الطرابلسي مساء يوم الأربعاء في ١٩ ذي الحجة ١٤٢١هـ الموافق لـ ١٤ آذار ٢٠٠١ في قاعة المحاضرات بالمجمع، وشارك في الحفل كل من الأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع والأستاذ الدكتور محمود السيّد والأستاذ الدكتور عادل العوا والأستاذ الدكتور عبد الله عبد الدايم والأستاذ المهندس محمد أيمن الطرابلسي باسم أسرة الفقيد (الكلمات التي ألقيت في الحفل في الملحق).

ثالثاً- سماته

لقد كان الدكتور أمجد الطرابلسي مثالاً وقدوة في الأعمال التي مارسها، وها هو ذا صديقه الأستاذ المرحوم الدكتور شكري فيصل يشير في حفل استقبال الدكتور الطرابلسي عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق إلى أنه كان خلال عمله التدريسي في الجامعة السورية مثلاً للوفاء الوفي، ومثلاً للجهاد الصابر، أما أنه كان مثالاً للوفاء الوفي فذلك لأنه أهدر كل حق لذاته، وتجاوز عن كل رغباته وميوله من أجل الوفاء للغته وأدبها وقرآنها وتراثها، فآثر أن يقول الكلمة النافعة في صفّ أو مدرّج لا يسمعها إلا المئون، على أن يقول الكلمة الجميلة يسمعها الملايين، وذلك بعد أن وأد نظم الشعر في تلك الفترة التي وقف نفسه فيها لعمله التدريسي.

وكان مثلاً للجهد الصابر، وقد عرف فيه ذلك زملاؤه وطلابه، فكان يدخل الجامعة في الصباح، ولا يخرج منها إلا مع الليل، وبين ذلك ساعتان قصيرتان للطعام والبيت، فكان يعود مع قسوة الساعة الرابعة إلى تلك الغرفة التي كان فيها قسم اللغة العربية، لينكب على كتاب يقرؤه أو نص يحققه. ولم يغادر الكلية مرة واحدة خلال تلك الأعوام التي عمل فيها في الجامعة إلا للمشاركة في مؤتمر، فكان آخر من يدخلها بعد امتحانات الصيف، وأول من يدخلها مع امتحانات الخريف.

وكان مثالاً للإيثار، إذ إنه لم يؤلف كتباً كثيرة لأنه كان يعمل على صناعة الأجيال التي تخرجت في الكلية انطلاقاً من إيمانه أن الكليات الناشئة تحتاج إلى كثير من التقاليد أكثر مما تحتاج إلى كثير من الكتب، وأن النموذج الحي ممثلاً في الإنسان الذي يصنعه أبعد أثراً في الهداية من الكتاب الذي ينشر، وأن سمعة الكليات ليست في عدد الكتب التي تطبعها بقدر ما هي في دروسها التي تجددها ونماذجها البشرية التي تصوغها.(١)

ويذكر الأستاذ الدكتور شاكر الفحام أن السنوات التي قضاها الدكتور أمجد الطرابلسي في التدريس الجامعي هي سنوات العطاء والبذل والتضحية دون توقف ولا منّ، وطالما أثنى المتحدثون من طلابه وعارفيه على طريقته البارعة في التدريس، فأشادوا بصنيعه، وأفاضوا في ذكر سعة علمه، وتمكّنه من مادته، وحسن تأتّيه ليجعل الصعب سهلاً، والبعيد النافر قريباً ميسراً، ولهذا كان تعلقُّ الطلاب التعلقَّ الشديد بحضور دروسه في إصغاء تام، وتحفز لفهم ما يلقيه عليهم واستيعابه.(٢)

ويبيّن الأستاذ الدكتور محمد الكتاني عضو أكاديمية المملكة المغربية، وقد عمل بإشراف الدكتور الطرابلسي في الدراسات العليا، ثم صار زميلاً له في العمل الجامعي التدريسي، أنه كان عملاقاً مهيباً بين طلابه برغم قامته القصيرة ونحافة جسمه، فقد كانت نظراته الثاقبة التي يصوِّبها إلى جالسيه أو أحد طلابه تبعث في النفس إحساساً بالوقار الذي يتحلى به، وهو وقار كان يحرص على أن يلتحف به،

(١) الدكتور شكري فيصل- خطابه في حفل استقبال الدكتور أمجد الطرابلسي- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ص١٦٣.

(٢) الدكتور شاكر الفحام- حفل فقيد المجمع الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق- المجلد (٧٧) الجزء الأول ص١٤٢.

ولم يند عنه خلال ثلاثين عاماً قضاها في المغرب ما ينال منه أو ينتقص منه، إذ ظل محترماً بين زملائه الأساتذة، مهيباً بين مريديه من الطلاب، وذلك بفضل ترفعه عن السفاسف، وعزوفه عن المجالس والمنتديات والاجتماعات، إلا ما كان ضرورياً داخل الكلية، كما كان عفّ اللسان، زاهداً في المطالب المادية، متحكماً في عواطفه ومشاعره، عالي الهمة، مستشعراً عصاميته ووقاره، بحيث لا يطمع أحد في محاباته أو مجاملته.[1]

ويشير الدكتور محمد قرقزان الذي تلمذ على يدي الدكتور الطرابلسي في المغرب، وحصل على الدكتوراه بإشرافه، إلى أنه تخرَّج على يديه أجيال من الباحثين، إذ عمل على تأطير أكثر من ستين طالباً في بحوث الماجستير ودكتوراه الدولة، ومن هؤلاء التلاميذ أساتذة جامعيون مرموقون وعمداء لكليات، ووزراء وسفراء، وقد عرفه تلامذته خلال هذه المدة التي قضاها في المغرب بأخلاقه العلمية السامية، وحصافة عقله، واتساع ثقافته وعمق تجربته، ودقته وتحريه، ومنهجيته الصارمة التي جعلته لا ينافق، جاداً دائماً، صلباً في آرائه، يوجّه طلبته والعاملين معه وفق محاور معينة اختارها معهم، أو اقترحوها عليه، منمّياً شخصياتهم، يرشدهم إلى طرق البحث كالتحقيق والاطلاع على القديم والجديد.

ومن سماته التواضع، والويل للطالب الذي يظهر أمامه بمظهر الغرور أو التباهي بأنه صنع، فغيره يجب أن يقول عنه إنه صنع. وكان ذا مزاج انفعالي عصبي أحياناً، وآناً تراه بسَّاماً بالرّضا أعظم ما يكون الرّضا، ولكنه الوجه الواحد عنده لا

---

(١) الدكتور محمد الكتاني عضو أكاديمية المملكة المغربية في تقديمه لكتاب- العلاّمة الدكتور أمجد الطرابلسي لمؤلفه الدكتور محمد قرقزان- مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ٢٠٠٨ ص١١.

يتغيّر، إن قال نعم فنعم، أو لا فلا. ومن خلق الأدب الجمّ قوله لتلامذته (جانبت الصواب)، دون قول (أخطأت).[1]

وكان زاهداً في الشهرة، لم يوقّع قرار المجمع بدخوله إليه عضواً لما كان وزيراً، ووقّعه لغيره. ومن شمائله السمو عن الإقليمية الضيقة، وكان رجل الموعد الدقيق والانضباط والصدق والإخلاص والجدّ والمنهجيّة الأصيلة في عمله.

ويذكر الأستاذ الدكتور عادل العوا رحمه الله، وكان صديقاً للمرحوم الطرابلسي، أنه كان مفعم الشعور بالإباء، نزِقاً ولكن بحصافة، سريع الارتكاس، حاسم القول، حازم الفعل، صريح الرأي، مخلص العمل، سبّاقاً إلى الفضل، يحسن تقدير الآخرين، فيتغاضى عن قصور العاجزين، ويتشدد في ردع الأكفاء القادرين، ذا كم دأبه في حياته الاجتماعية وحياته الرسمية على نحو سواء.[2]

ويرى الأستاذ الدكتور عبد الله عبد الدايم رحمه الله، وكان صديقاً للمرحوم الطرابلسي، أن أهم ما يسم طباع صديقه أمجد وفكره في آن واحد، الإباء والشمم، لقد كان منتصباً في وقفته ومشيته وتحيته، كما كان أشمّ شامخاً في أفكاره وقناعاته ومبادئه.

ويستدرك الدكتور الدايم قائلاً: «على أن أمجد الأبيّ الصلب الصليب، كان من أكثر من عرفت رقةً في الحواشي ودماثة في الطباع. كان سهلاً مألفاً محبّباً ومحبّاً لمن يأنس لديه الخير، ولاسيما من طلابه. فقد كان أمام محراب العلم جمَّ التواضع، بعيداً عن ادعاء الإحاطة، يذكّر بالقول المأثور: «إذا ترك العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله».[3]

---

(١) الدكتور محمد قرقزان- العلاّمة الدكتور أمجد الطرابلسي- مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق عام ٢٠٠٨ ص٤٢.

(٢) الدكتور عادل العوا- حفل تأبين الدكتور الطرابلسي- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق- المجلد (٧٧) الجزء الأول ص١٦٦.

(٣) الدكتور عبد الله عبد الدايم- حفل تأبين الدكتور الطرابلسي- المرجع السابق ص١٧٦.

ويذهب الدكتور عبد الدايم إلى أنه لا يتفق مع من تقالّوا عطاء الطرابلسي، إذ إنه يرى أن قليله كثير، فقد كان جواداً متخفياً في صدقه وصداقته، في أحاسيسه ومشاعره ومثله العليا، وفي نتاجه الفكري والأدبي نفسه. وفي مجال هذا النتاج الأدبي يروي الرواة عنه أن أحد طلاب الدكتوراه سأله يوماً لماذا لم تؤلف كتباً؟ فأجاب بكلمات ثلاث: «اخترت تأليف الرجال». وفي رواية: «طلابي هم كتبي»، ويا له من خيار صعب، يذكرنا بقول شاعر جاهلي:

يبني الرجال وغيره يبني القرى ... شتان بين قرى وبين رجال

أولم يُشرف فقيدنا أثناء مقامه بالمغرب خلال لواذ ثلاثين عاماً (١٩٦١- ١٩٩١) على أكثر من ستين رسالة دكتوراه وماجستير، سار ذكرها على الألسن وحملها الركبان، وكوّنت أجيالاً من الأساتذة والعلماء، دربوا على أساليب البحث العلمي الرفيع، وتمرّسوا بتقديس العلم والاستزادة منه دوماً وأبداً، وتسلّحوا بمفاتيحه وأدواته؟

ويبين الدكتور عبد الدايم أن مما كتبه أحد طلاب الطرابلسي القدامى في كلية الآداب بمدينة فاس وهو بشير القمري: «لقد تعلمنا منه الصبر، وتعلمنا منه المجاهدة، وتعلمنا السفر والإبحار خلف رصيد وكنوز الأدب العربي القديم».

«لقد كنّا، ونحن بين يدي فقيدنا، نحس أننا في طقس احتفالي بالشعر والشعراء في الجاهلية والإسلام وفي العصور الأخرى، طقس يستحضر فيه أستاذنا الغالي النصوص والأخبار والشروح والتعاليق والهوامش، يستنطقها ويمحّصها وينخلها، ويلقي بها في أفئدتنا ووجداننا».[١]

---

(١) المرجع السابق ص١٧١.

ويقول الدكتور إدريس بلمليح في تقديم الترجمة العربية لأطروحة الفقيد التي تولى ترجمتها إلى العربية: «علّمني الاعتزاز بالتراث العربي والإسلامي، إذ كان رائدي في التعلق بهذا التراث وتذوقه رجلاً عشق التاريخ العربي إلى حدّ التصوف، ولكن عشقه ذاك لم يكن انفعالاً متشنجاً أو انكفاءً على الذات التي تجتر وتعيد ما قيل سلفاً، بل هو عشق الباحث المتفتح والعالم الذي يضمن التوازن الحيوي والفعال بين مقوّمات الذات العربية والإسلامية، وبين معطيات الفكر والحضارة الإنسانية أياً كان مصدرها».(١)

أما عشقه للغة العربية فيعبّر عنه الأستاذ نجيب العوفي في كلمة كتبها في الملحق الذي أفردته «جريدة الاتحاد الاشتراكي» للفقيد: «وكان الرجل عاشقاً مدققاً للغة العربية، يهواها بقلبه ووجدانه، ويكلؤها بعقله وقلبه ولسانه».

ويصوّر الشاعر السوري شوقي بغدادي، وكان أحد طلاب الدكتور الطرابلسي في الجامعة السورية، الدرس الأول الذي حضره له في الجامعة قائلاً «وحين استقر على مقعده وراء المنبر وبدأ يتكلم لم نعد نسمع سوى صوته، ووجيب قلوبنا الصاغية إلى النبرة الرجولية الرصينة واللغة الفصحى المبينة، والأسلوب الرقيق المداعب، والعلم الثريّ الدفين. لقد استطاع أن يفتح وجداننا من خلال أسلوبه اللطيف ومعلوماته الواسعة الحديثة والمنظّمة أن يفتح قلوبنا وعقولنا على منهج جديد كلّ الجدة في فهم الأدب العربي عامة، بل في فهم عملية الإبداع الفنيّ كلها».(٢)

وثمة أديب سوري آخر هو الأستاذ فريد جحا، وكان أحد طلاب الدكتور الطرابلسي في الجامعة السورية أيضاً، يتحدث عن أستاذه الطرابلسي قائلاً: «كم أخذنا عنه من علم وخلق وأدب وفن، إنه موسوعة شملت المعارف والعلوم

---

(١) المرجع السابق ص١٧٣.

(٢) شوقي بغدادي- عودة أمجد الطرابلسي- صحيفة تشرين- العدد ٧٩٢٢ بتاريخ ٥ شباط ٢٠٠١.

والفنون، وأتقنت إلى جانب الشعر والفن دقة الدراسة وعمق البحث وغرابته وجدته وحسن التخطيط له. وأهم ما أخذنا عنه سجاياه ومزاياه: كبر العربي وأنفته، وشجاعته، ووقفته كشجرة في وجه الريح، وعروبة أخذناها عنه، عروبة مشرقة كنور الشمس في يوم ربيعي أنيق، أو كالماء المنحدر من سفح جبل، وإيماناً بهذا الوطن العربي، بأمتنا، بحضارتها، بماضيها ومستقبلها».[١]

ويتحدث الدكتور عباس أرحيلة عن سجايا الطرابلسي التي وجدها في شخصه عندما كان يعمل في جامعات المغرب العربي قائلاً: «كان مضرب المثل في دقة مواعيده والتزاماته وفي دقة منهجه وفهمه للنصوص، وكان مضرب المثل في نزاهته وصرامته العلمية ورحابة فكره. كان مهاب الجانب كريم النفس وعزيزها، تأبى عليه نفسه ما ترضاه نفوس غيره، لم يبتذل علمه لغير ما وضع له العلم فصانه من الانحراف والابتذال، فأبقى للعلم حرمته وسموه، وأبقى للنفس عزتها وشموخها، فكان في الديار المغربية رمزاً يذكر بالقيم النبيلة في المجتمعات الجديرة بالعزة والكرامة والخلود».[٢]

أما الحياة الرسمية للطرابلسي عندما كان وزيراً فقد عبّر عنها الأستاذ المرحوم الدكتور شكري فيصل أيّما تعبير في حفل استقباله عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق إذ يقول: «إن حياتك حين خرجت من الكلية إلى الوزارة لم تكن قطُّ هذه الحياة الرسمية التي يحياها الوزراء وأصحاب السلطان.. ولم نعرفك من خلالها إلا كما عرفناك من قبلُ.. رسالتك هي رسالتك.. غرفة الوزارة لم تكن غرفة أخرى غير غرفة الدرس والمحاضرة.. لم ننس في يوم أنك من أجل هذا الوطن. من أجل لغته

---

(١) فريد جحا- تحية لروح الراحل أمجد الطرابلسي- صحيفة تشرين- العدد ٧٩٢٢ بتاريخ ٥ شباط ٢٠٠١.

(٢) الدكتور عباس أرحيلة- جريدة العلم بتاريخ ٥/ ٦/ ٢٠٠٢.

ومن أجل معرفته.. اتسع الأفق أمامك فلابد أن تتوزع جهودك على طول هذا الأفق وعرضه، ولكن تظل هذه الجهود في سبيل العلم والمعرفة واللغة..». [1]

والواقع يعدُّ الطرابلسي علماً من أعلام النهضة العربية الحديثة في بلاد الشام لا بل في الأمة العربية، فقد كان شاعراً وكاتباً وباحثاً ومحققاً وأستاذاً جامعياً ومجمعياً ووزيراً، وقف حياته من أجل التمكين للثقافة العربية ولغتها في محيطها الاجتماعي والسياسي، ونال التكريم على جميع الصعد تقديراً لعطائه العلمي ومواقفه الصلبة الصادقة.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) الدكتور شكري فيصل- خطابه في حفل استقبال الدكتور أمجد الطرابلسي- مرجع سابق ص١٦٦.

الفصل الثاني

الطرابلسي باحثاً ومؤلفاً

الفصل الثاني

الطرابلسي باحثاً ومؤلفاً

نحاول في هذا الفصل أن نتعرف نموذجاً من بحوث الدكتور الطرابلسي وآخر من تأليفه.

أولاً: نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة

وهو بحث جامعي تقدّم به مؤلفه الطرابلسي إلى جامعة السوربون في باريس، ونال به درجة الدكتوراه بعد مناقشته في اليوم السادس من شهر كانون الثاني عام ١٩٤٥، في أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية في أوربا.

وقد صدر بالفرنسية في سلسلة منشورات المعهد الفرنسي بدمشق التابع لجامعة السُّوربون بعد عشر سنوات من مناقشته، وقام الدكتور إدريس بلميلح بترجمته إلى اللغة العربية بعد خمس وثلاثين سنة من نشره بالفرنسية، وصدر الكتاب عن دار توبقال للنشر في الرباط.

ويقول الدكتور الطرابلسي في مقدمة الطبعة العربية «كتب هذا البحث في باريس في سنوات الحرب العالمية الثانية المظلمة، وكان مؤلفه يضع جذاذاته ومسوداته في الحقيبة الصغيرة التي يحملها معه إلى الملجأ كلما دوّت صفارات الإنذار، إذ كان أثمن ما يملك، بل كل ما يملك. وهكذا فإن في كل فصل من فصول هذا الكتاب، بل في كل ورقة من ورقاته ذكرى مريرة، أو صورة مثيرة».

ويشير المترجم إدريس بلمليح إلى ميزات هذا البحث قائلاً: «إن ما يميز هذه الدراسة التي عملت على نقلها إلى العربية، هو هذا التصور النظري العام الذي تأسست عليه، والذي لابد من أن يفيدنا اليوم في تعرف النقد العربي القديم، وفي مقارنته بالنقد الأوربي، ثم – وهذا هو الأهم من وجهة نظري– في معرفة بناء نظري متكامل، وكاف لدراسة النص الإبداعي وتقويمه، في ضوء تمازج حيوي وفعال قد انصهرت ضمنه ثقافة عربية صحيحة، وثقافة أوربية عميقة ودقيقة، ثم جهد علمي متميز في مجال نظرية الشعر ما نزال في أمس الحاجة إليه بقصد تأسيس توازن موضوعي بين تراثنا العربي ومقوماتنا الذاتية، وبين إمكانات تفتحنا الحضاري وحوارنا مع الثقافات الرائجة في عالمنا المعاصر».

وجاءت الدراسة في قسمين أولهما عنوانه «تاريخ نقد الشعر عند العرب»، وثانيهما عنوانه «النقد العربي ونظرية الشعر». واشتمل القسم الأول على ثلاثة فصول، تناول أولها النقد الشفوي في القرن الأول والثاني للهجرة، وتناول الفصل الثاني تدوين الشعر العربي في معلمين، وتضمن المعلم الأول حركة النقل، وأبان الباحث أن المحافظة على الشعر القديم تمثلت في خمسة أشكال:

١- الدواوين الشعرية التي يخص كل واحد منها شاعراً بمفرده، وأشهر العلماء الذين دوّنوا آثار الشعراء القدامى أبو عمرو الشيباني والأصمعي ومحمد بن حبيب والطوسي وابن السكيت والسكري وثعلب وابن الأنباري، وأشهر العلماء الذين دوّنوا أشعار المحدثين الصولي والأصفهاني.

٢- المختارات الشعرية العامة التي تتضمن كل مجموعة منها قصائد أو مقطوعات منتخبة من آثار عدد كبير من الشعراء، ومن أصحاب هذه المختارات المفضل الضبيّ صاحب المفضليات، والأصمعي مؤلف الأصمعيات، وكتاب الأراجيز

(مختارات شعرية من وزن الرجز)، وأبو تمام الذي ألّف الحماسة، كما ألّف «اختيار الشعراء الفحول» و«اختيار المقطّعات»، و«اختيار الشعراء المحدثين»، وابن قتيبة صاحب «عيون الشعر»، والبحتري صاحب «الحماسة» أيضاً، ويعرض الباحث لمؤلفات أخرى، ثم يقف على المفضليات والأصمعيات وحماسة أبي تمام وحماسة البحتري وجمهرة أشعار العرب للقرشي مبيناً محتوياتها ومعقباً على منهجيتها.

٣- المجموعات الشعرية التي تتضمن آثار شعراء ينتمون إلى قبيلة واحدة: ومن بين العلماء الذين اهتموا بهذا النوع من التدوين الفقعسي مؤلف مآثر بني أسد وأشعارها، وخالد بن كلثوم الكلبي الكوفي مؤلف أشعار القبائل، وأبو عمرو الشيباني الذي جمع أشعار أكثر من ثمانين قبيلة، وأبرز مؤلف اهتم بتدوين أشعار القبائل هو أبو سعيد السكري، وقد جمع أشعار ست وعشرين قبيلة تنظيماً وشرحاً.

أما المعلم الثاني في هذا الفصل فقد تناول فيه الباحث الطرابلسي مؤلفات في الشعر والشعراء فوقف على طبقات الشعراء لابن سلّام، وطبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز، كما تناول أخبار الشعراء، ووقف على نموذجين يمثلان تلك الأخبار خير تمثيل وهما كتاب ابن قتيبة «الشعر والشعراء»، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. وتناول الباحث أيضاً التراجم المفردة وهي التي تعنى بأخبار فلان، ويهتم كل منها بحياة شاعر معيّن وآثاره، ومن بين ممثلي هذا الصنف المدائني مؤلف أخبار الفرزدق، وإسحاق بن إبراهيم الموصلي صاحب أخبار حسان، وأخبار ذي الرمة، وأخبار جميل، وأخبار كثيّر، وأخبار نصيب...الخ ثم ابنه حماد بن إسحاق الذي ألّف أخبار الحطيئة وأخبار ذي الرمة، وأخبار عروة بن الورد، وأخبار رؤبة، وأخبار بن قيس الرقيّات، ...الخ.

وفي ضوء نظرة موضوعية ناقدة عرض الباحث للثغرات الموجودة في هذه المؤلفات فيشير إلى الأمور السلبية ويستدرك بعد تبيانها قائلاً: «ولا يمكن لهذه المناقص على خطورتها أن تنسينا العون الذي أسدته تلك المؤلفات والذي مازال يسد به ما تبقى منها لتاريخ الشعر العربي القديم، كما أنها لا تنسينا كذلك ما أحدثه فقد معظمها من ثغرات مؤسفة في التاريخ المشار إليه».

وعرض الباحث في هذا المعلم الثاني لكتب الأدب، فأبان عدداً منها، ومن الكتب التي ذكرها كتاب الحيوان للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة وأدب الكاتب له أيضاً، وكتاب الكامل للمبرّد، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، وكتاب الأمالي لأبي علي القالي.

وعدّد الباحث مزايا هذه الكتب الأدبية والمكانة التي يحتلها كل منها في التراث العربي الأدبي.

أما الفصل الثالث في القسم الأول من البحث فقد كان عنوانه «تأسيس النقد العربي وتطوره من القرن الثالث إلى القرن الخامس للهجرة (التاسع- الحادي عشر الميلادي). واشتمل هذا الفصل على دراسة تطور النقد الشعري عند العرب إلى حدود القرن الخامس للهجرة، والوقوف عند مختلف العوامل التي مارست تأثيرها فيه. فأوضح المرحلة الاتّباعية وأبان أن أقدم نصين نقديين من وضع لغويين اثنين عاشا في أواخر القرن الثاني للهجرة وامتد بهما العمر إلى بداية القرن الثالث، وتمثلا في فحولة الشعراء للأصمعي ومقدمة طبقات الشعراء لابن سلّام الجمحي. ووقف البحث على مناهضة الشعوبية والصراع بين القدماء والمحدثين (٢٤٠هـ- ٢٨٠هـ) ثم وقف على التأثير الهلنستي والمدرسة الاتباعية الجديدة (٢٨٠هـ -٣٤٠هـ) فعرض لكتاب الشعر وكتاب الخطابة لأرسطو، وقواعد الشعر لثعلب، وكتاب البديع لابن

المعتز، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر،كما عرض للنقد الاتباعي الجديد (٣٤٠هـ-نهاية القرن الخامس) وذلك في الدراسات والموازنات حول أبي تمام والموازنة بين الطائيين للآمدي والخصومة حول المتنبي، وأشار إلى كتاب الوساطة مفسراً وناقداً.

وفي الفصل أيضاً عرض لكتب فن الشعر متمثلة في كتاب الصناعتين للعسكري والعمدة لابن رشيق.

أما القسم الثاني من البحث فقد اشتمل على خمسة فصول، تناول الباحث في الفصل الأول من هذا القسم مفهوم الشعر والشاعر في النقد العربي القديم، وعرض في الفصل الثاني للنقد العربي وقضايا الشكل الفني فأبان تنقيح الشكل الفني وتثقيفه، وما يجوز للشاعر في الضرورة والحشو وأساليب البديع حيث وقف على بعض وجوه البديع المهمة، وتناول كلاً من التشبيه والاستعارة والغلوّ والجناس.

واشتمل الفصل الثالث على عناصر الشكل فعالج الألفاظ الشعرية والوزن والقافية، وكان «النقد العربي وقضايا المضمون» عنوان الفصل الرابع، وتضمن هذا الفصل السرقات الشعرية. أما «أغراض الشعر» فكانت عنوان الفصل الخامس والأخير حيث تناول الباحث فن المديح (المدح الصميم، الفخر، الرثاء) والهجاء واللهو (الخمريات والنسيب) وفن الوصف.

وكانت ثمة خلاصة وخاتمة للدراسة.

ولقد لخص الباحث الميزات العامة التي طبعت الشعرية العربية القديمة فذكر أربع ميزات هي:

١- إن هذه الشعرية كانت نقداً عربياً صحيحاً.

٢- ليس ثمة تناقض بين الروح المحافظة والمرتبطة بالماضي لدى نقادنا القدماء وبين نزعتهم القومية.

٣- لما كان النقد العربي القديم نشأ نشأة لغوية صحيحة، ظل طوال تاريخه مرتبطاً بمعالم نشأته تلك وموسوماً بميسمها.

٤- يتسم النقد العربي في العصر الوسيط بتوجهه اليقيني أو وثوقيته.

وإذا كانت دراسة الدكتور أمجد في هذا الأثر «نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس الهجري» تشتمل على قسمين فهي دراسة تاريخية في قسمها الأول ونظرية مفاهيمية في قسمها الثاني كما يرى مترجم الدراسة إلى العربية الذي وصف المنهج العلمي المعتمد في الدراسة فقال:

«إذا أردنا وصف المنهج العلمي المعتمد أمكننا القول: إنه منهج حفري ومنمذج، ونقصد بذلك أن القسم الأول سعى إلى معرفة المادة الشعرية التي تأسس عليها النقد العربي القديم عن طريق الحفر التاريخي للباحث عن هذه المادة في قوائم الكتب (البيبلوغرافيات) العربية القديمة والجديدة، ثم سعى بعد ذلك إلى التصنيف والتبويب اللذين بنيت في إطارهما المجموعات الشعرية والدواوين المختلفة بناء جديداً نستطيع أن نقول إنه بناء وصفي. أما النمذجة فهي البناء النظري الذي انتظم في إطاره النقد العربي القديم من وجهة نظر الدكتور أمجد، وقد سعى من خلاله إلى فهم هذا النقد ووصفه وتقويمه بدءاً بمكونه التصويري للشعر والشاعر وانتهاء إلى فهمه لموضوع الشعر أو المضمون».

ولقد أحاط الدكتور الطرابلسي في رسالته بالمفاهيم الشعرية لدى النقاد العرب القدماء، وتتبع تطور هذه المفاهيم في تفاصيلها، وركز على الحقبة الممتدة بين أواخر القرن الثالث الهجري وظهور ابن رشيق المتوفَّى سنة ٤٦٣هـ. وتعد هذه الحقبة من أكثر الحقب ازدهاراً مما جعله يختارها موضوعاً لدراسته.

وتجدر الإشارة إلى أن من بين الأهداف التي دفعت إدريس بلمليح إلى نقل

دراسة الطرابلسي إلى العربية تعريف القارئ العربي إلى النقد العربي القديم في حال تعايشه المتوازن مع النقد الغربي أي بالمقارنة إلى كتاب الشعر وكتاب الخطابة لأرسطو، ثم بتفتحه على بعض المفاهيم النقدية والبلاغية المتداولة في أوربا.

ويضيف قائلاً: «لقد كان رائدي في التعلق بهذا التراث وتذوقه رجل عشق التاريخ العربي إلى حد التصوف، ولكن عشقه ذاك لم يكن انفعالاً متشنجاً أو انكفاء على الذات التي تجتر وتعيد، بل هو عشق الباحث المتفتح والعالم الذي يضمن التوازن بين مقومات الذات العربية الإسلامية ومعطيات الفكر والحضارة الإنسانية أياً كان مصدرها أو مسارها».

ويعد صاحب العمل نفسه الدكتور أمجد الطرابلسي دراسته على كونها الآن وثيقة تاريخية عتيقة، إلا أنها أول بحث منظم في بابه، ولم تزل في وسعها أن تفيد المعنيين بدراسته الشعرية العربية القديمة أو بالدراسات المقارنة.

والواقع إن في هذه الدراسة مجالاً واسعاً للدراسات المقارنة من جهة، وللتطور التاريخي لنقد الشعر العربي في القرون الأولى من جهة أخرى.

ثانياً: نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب

صدر هذا الكتاب في طبعات متعددة، كانت الطبعة الأولى عام ١٩٥٤م، والطبعة التي بين أيدينا هي الطبعة الخامسة وقد صدرت عام ١٩٧١م، ويقع الكتاب في ٢٣١ صفحة، وهو مجموعة دروس في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا حتى فجر النهضة الحديثة، وكان مقرراً على طلبة شهادة الثقافة العامة في الجامعة السورية.

هدف الدكتور الطرابلسي من تأليف كتابه كما يشير إلى ذلك في مقدمة كتابه إلى

أن يكوّن لدى الطلاب فكرة موجزة وواضحة عن بعض نواحي النشاط الفكري عند العرب من جهة، وإلى دلالة الطالب الجامعي على المراجع والمصادر الهامة التي هو بحاجة إليها لاستكمال أدوات بحثه.

يقع الكتاب في بابين أولهما التأليف في اللغة، وثانيهما التأليف في الأدب، ومهّد للباب الأول في الحديث عن المعاجم، وأشار إلى أن معاجم اللغة على نوعين: معاجم الألفاظ، وهي تفيدنا مبدئياً في الكشف عن معنى لفظة من الألفاظ، ومعاجم المعاني وهي تفيدنا في إيجاد لفظ لمعنى من المعاني يدور بخلدنا ولا ندري كيف نعبر عنه بدقة. وقد خصص المؤلف لكل نوع فصلاً خاصاً به. وأبان في الفصل الأول (معاجم الألفاظ) أن جمع ألفاظ اللغة العربية مرّ بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: هي مرحلة تدوين ألفاظ اللغة وتفسيرها دون ترتيب وخير ما يمثل هذه المرحلة كتاب النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة تدوين ألفاظ اللغة مرتبة في رسائل متفرقة صغيرة محدودة الموضوع مبنية على معنى من المعاني أو على حرف من الحروف، ومما يمثل هذه المرحلة كتاب المطر وكتاب اللبأ واللبن لأبي زيد الأنصاري، وكتاب الإبل وكتاب الخيل وكتاب الشاء وكتاب أسماء الوحوش للأصمعي، ومما يمثل هذه المرحلة أيضاً الكتب التي ألفت في الأضداد ومثلث الكلام.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة وضع المعاجم العامة الشاملة المنظمة، وقد اتبعت في هذه المعاجم ثلاث طرق مختلفة:

١- ترتيب الألفاظ بحسب مخارج الحروف كمعجم الخليل بن أحمد الفراهيدي (العين).

٢- ترتيب أصول الكلمات حسب حروف المعجم مع مراعاة أوائل هذه

الأصول كمعجم جمهرة اللغة للأزدي ومقاييس اللغة لابن فارس، وأساس البلاغة للزمخشري.

٣- ترتيب الكلمات حسب الترتيب الهجائي مع مراعاة أواخر الكلمة وأول من اتبع هذه الطريقة في ترتيب المعاجم أبو نصر الجوهري في معجمه المشهور (تاج اللغة وصحاح العربية) المعروف بمعجم الصحاح، وسار على المنوال نفسه ابن منظور المصري في معجمه (لسان العرب) ومجد الدين الفيروزابادي في (القاموس المحيط).

ثم يقف المؤلف في هذا الفصل على أشهر المعاجم العربية فيرى أنها أساس البلاغة للزمخشري ولسان العرب لابن منظور المصري، والقاموس المحيط للفيروزابادي، وقد أبان خصائص كل معجم من هذه المعاجم ومزاياه في ضوء نظرة نقدية موضوعية.

واتبع المؤلف في الفصل الثاني (معاجم المعاني) الطريقة نفسها التي اتبعها في الفصل الأول (معاجم الألفاظ) فأشار إلى ثلاث مراحل مرّ بها التأليف في هذا المجال، وهذه المراحل هي:

<u>المرحلة الأولى:</u> وهي مرحلة تأليف الرسائل الصغيرة التي يستقل كل منها بألفاظ معنى أو جنس من أجناس النبات أو الحيوان مثل كتاب المطر وكتاب اللبن واللبأ لأبي زيد الأنصاري، ومثل كتاب الخيل وكتاب الإبل وكتاب الشاء وكتاب النخل للأصمعي.

<u>المرحلة الثانية:</u> وهي مرحلة تأليف كتب أوسع حجماً وموضوعاً من الرسائل السابقة، مثل كتاب الألفاظ لابن السكّيت، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني، وكتاب الألفاظ أو جواهر الألفاظ لمؤلفه قدامة بن جعفر.

المرحلة الثالثة: وأشهر الكتب التي تمثل هذه المرحلة كتابان اثنان هما فقه اللغة للثعالبي، والمخصص لابن سيدة الأندلسي.

وقد قدّم المؤلف نماذج وأمثلة وردت في كل كتاب من الكتب التي ذكرها في كل مرحلة، وأبان خصائص كل كتاب ومزاياه، وأبدى ملاحظاته على كل منها.

أما الباب الثاني من كتاب المؤلف «نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب» فكان عنوانه (التأليف في الأدب)، وقد اشتمل على ثلاثة فصول، تناول أولها مجموعات الشعر العربي القديم، فأوضح رواية الشعر في الجاهلية وصدر الإسلام، ونشاط الرواية في عصر التدوين وجمع الدواوين وتصنيف المختارات، ووقف على أشهر المجموعات الشعرية المصنفة في القرنين الثاني والثالث، ففصَّل القول في المفضليات لمصنفها المفضل بن محمد بن يعلى الضبي على أنها أقدم مجموعة شعرية وصلت إلينا مما صنف في القرن الهجري الثاني، فأبان مزاياها، ثم فصَّل القول في الأصمعيات نسبة إلى مصنفها الأصمعي، ووازن بين المفضلّيات والأصمعيات، ثم ذكر من المجموعات الشعرية القديمة كتاب جمهرة أشعار العرب للقرشي، فشرح مضمونها وملاحظاته على ذلك المضمون، كما ذكر طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين لابن سلام الجمحي، وديوان الهذليين ويضم أشعار بني ذهيل.

وتناول المؤلف في هذا الفصل أيضاً الحماسات: حماسة أبي تمام فذكر أبوابها، وحماسة البحتري، ووازن بين حماسة كل من أبي تمام والبحتري فذكر أن حماسة أبي تمام هي في فنون الشعر، في حين أن حماسة البحتري هي في معاني الشعر. ثم وقف على حماسة ابن الشجري ومختاراته وعنوانها (ديوان مختارات شعر العرب)، وتضم هذه المختارات ما يقرب من خمسين قصيدة لأربعة عشر شاعراً كلهم من الجاهليين ما عدا مخضرماً واحداً هو الحطيئة.

وفي الفصل الثاني من هذا الباب وقفة على كتب الثقافة الأدبية العامة، وأبان أن أوضح ما يميز كتب الأدب من سواها صفتان أولاهما فقدان الاختصاص أي لا تقتصر على فن واحد بل تطرق شتى الفنون، وثانيتهما الاستطراد المستمر وإن شئت فقل الفوضى على حدّ تعبيره، ومن أشهر كتب الأدب في القرن الهجري الثالث كتابا الحيوان والبيان والتبيين للجاحظ، فيعمل على تبيان مزاياهما بعد تبيان محتوياتهما، ثم يقف على كتاب الكامل للمبرّد، وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، وينتقل بعدها إلى تبيان أشهر كتب الأدب في القرن الهجري الرابع فيفصّل القول في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، وكتاب الأمالي لأبي علي القالي البغدادي، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ويعد من أشهر كتب الأدب في القرن الرابع الهجري وأحفلها بالمعارف.

وتناول المؤلف في الفصل الثالث من هذا الباب كتب تراجم الأدباء، فأوضح الكتب المصنفة في تراجم الشعراء مثل كتاب طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين لمحمد بن سلام الجمحي، وهو من أقدم الكتب التي وصلت في تراجم الشعراء، ثم وقف على كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني حيث أشار إليه باقتضاب في الفصل السابق، في حين شرح بتوسع مضمونه وخطته وغرض المؤلف من تأليفه. وانتقل الطرابلسي في هذا الفصل بعد الحديث عن كتاب الأغاني إلى الحديث عن معجم الشعراء للمرزباني، والمؤتلف والمختلف للآمدي، ويتيمة الدهر للثعالبي، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام.

وفي القسم الثاني من الفصل يتحدث المؤلف عن الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة، فيذكر منها طبقات النحويين البصريين وأخبارهم لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد، وأخبار النحويين لابن درستويه، وطبقات النحاة البصريين للسيرافي، ومراتب النحويين لأبي الطيّب اللغوي، والمقتبس في أخبار النحويين واللغويين للمرزباني.

ويقف على أشهر الكتب المطبوعة في هذا المجال، وهي طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء للأنباري، وأنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي.

أما القسم الثالث من هذا الفصل فكان الحديث فيه مركزاً على معجم الأدباء لياقوت الحموي.

والكتاب بمجمله ذو فائدة كبيرة، إذ إنه يزوّد الطالب بزاد لغوي وأدبي يساعده على البحث والتنقيب في تراث أمته في ميداني اللغة والأدب، ويدرّبه على النقد الموضوعي للمؤلفات المنجزة في هذين الميدانين، كما يدرّبه على المنهجية الدقيقة في التأليف والتبويب، وإيفاء الموضوعات المتناولة حقها من المعالجة.

الفَصْلُ الثّالِث

الطَّرابُلُسيّ مُحاضِراً

الفصل الثالث

الطرابلسي محاضراً

عديدة هي المحاضرات التي ألقاها الدكتور الطرابلسي على الصعيد العربي، ولسنا الآن في مجال حصرها كافة، وإنما سنسلط الضوء على بعضها، ويمكن أن نصنّف هذه المحاضرات في قسمين أولهما قبل عام ١٩٥٦ وثانيهما عام ١٩٥٦.

أولاً: من محاضرات قبل عام ١٩٥٦

١ - **ثمة مجموعة من المحاضرات** ألقاها الطرابلسي على طلاب شهادة آداب اللغة العربية في الجامعة السورية خلال العامين الدراسيين ١٩٤٩/ ١٩٥٠ و١٩٥٠/ ١٩٥١م، وتمحورت هذه المحاضرات حول **النقد واللغة في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري**، وكان رحمه الله من محبي أبي العلاء المعري والمعجبين به، وقد أبان في هذه المحاضرات الجانب النقدي الأدبي والتصوير المبدع لدى أبي العلاء، وأبان فيها الجانب اللغوي والتعليمي، كما سلّط المحاضر الضوء على شخصية المعري كما تتجلى في رسالة الغفران، وهو يرى في المعري من خلالها كاتباً عظيماً متوثب الخيال، عجيب التصاوير، ذكي التهكم، وقاصاً بارعاً يستأثر لب القارئ، ويبهر بصره بأشخاص قصته من ملائكة وجن وأناسي، وعالماً واسع الاطلاع على فنون الأدب وعلوم اللغة، وناقداً من الطراز الأول نشيط الفكر، ذكياً متمكناً من أدوات النقد كل التمكن.

ولقد أبان من خلال تحليله لرسالة الغفران أن أبا العلاء المعري لم يكن مجرد شاعر وكاتب عظيم، بل كان أيضاً عالماً وأستاذاً عظيماً في الأدب وعلوم العربية،

وكشف في الوقت نفسه عن الطريقة التعليمية التي كان يتبعها أبو العلاء في كتبه، تلك الطريقة التي تمزج بين الفن الرفيع والعلم العميق مزجاً حكيماً.

وإذا كان الدكتور طه حسين يرى أن أبا العلاء كان يتكلف الغريب في رسالة الغفران ويتعمده ليصد عامة الناس وجهالهم، سواء في ذلك العلماء وغير العلماء، عن قراءته والظهور على ما فيه، وكأن أبا العلاء كان لا يكتب لعصره، هذا العصر الحديث الذي نحن فيه وللعصور التي تليه فإن الدكتور الطرابلسي يرد على هذا القول قائلاً: «لو أراد المعري الإبهام والتعمية لما كلّف نفسه عناء الشرح والتفسير وتصنيف الكتب بغية التوضيح والتسهيل، يضاف إلى ذلك أن أخطر آراء المعري في الدين والسياسة ونقد المجتمع، وأكثر عباراته جرأة على السخرية والتهكم إنما صبت في قوالب سهلة مفهومة وواضحة».

ويؤكد الطرابلسي رأيه في أن المعري كان عالماً في الأدب واللغة بقدر ما كان أديباً، وقد كان يعتزُّ بعلمه كما كان يعتزُّ بأدبه، وقد لبث الناس خلال عصور طويلة يجلّونه عالماً كما يجلّونه أديباً. ومن الظلم أن يأتي العصر الحديث فيغمط المعري حقه بإسدال الستار على هذه الناحية من شخصيته التي كانت تعد من أبرز عناوين شهرته ومجده.

٢- **محاضرة ألقاها في حلب**، وقد نشرت في مجموعة المحاضرات العامة لعام ١٩٥٢ من منشورات دار الكتب الوطنية بحلب، وتحدّث فيها عن الأدب العربي بين الأدب القومي والأدب الإنساني.

٣- **محاضرة ألقاها في الجامعة السورية** عام ١٩٥٢، ونشرت في المحاضرات العامة للسنة الجامعية ١٩٥٢/ ١٩٥٣ في الجامعة السورية وعنوانها «تضامن الفنون» ويقول الدكتور شكري فيصل إن هذه المحاضرة كانت جديدة الجِدَّةَ كلها، وقد

واءم فيها المحاضر بين الفلسفة والأدب والفن على نحو فذّ، وتجلّت في المحاضرة ثقافة المحاضر الفنية والأدبية الغربية والعربية، وكانت غنية في تفكيرها وفي أمثلتها، وفي الذوق الرفيع الذي كانت تنبض به كل كلمة من كلماتها أو جملة من جملها.

٤- **محاضرة ألقاها في الجزائر** عام ١٩٥٢ عن «ابن قتيبة»، وقد نشرتها جريدة الشعب الجزائرية، وكشف فيها المحاضر عن الصلة بين التيارات النقدية والحياة الاجتماعية إبان ازدهار الدولة العباسية.

٥- **محاضرة ألقاها في الكويت** عنوانها «شعراء الشام والفكرة العربية خلال النصف الأول من القرن العشرين»، وقد نشرتها ضمن محاضرات الموسم الثقافي الثاني ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م دار المعارف بمصر، وتحدّث فيها عن فكرة العروبة لدى شعراء الشام في النصف الأول من القرن العشرين.

ثانياً: من محاضرات عام ١٩٥٦

وفي هذا المجال ثمة وقفة على محاضرة ألقاها الدكتور الطرابلسي عام ١٩٥٦ في الكويت عنوانها «تأملات وذكريات في حرم المسجد الجامع في قرطبة»، ووقفة أخرى على مجموعة المحاضرات التي ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية في معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية. وفيما يلي فكرة موجزة عن محاضرات هاتين الوقفتين.

١- محاضرة «تأملات وذكريات في حرم المسجد الجامع في قرطبة»:

وردت المحاضرة في منشورات معارف الكويت ضمن محاضرات الموسم الثقافي الثاني ١٣٧٥هـ- ١٩٥٦م (دار المعارف بمصر)، وقد سلّط الأضواء عليها الدكتور

شكري فيصل في حفل استقبال الدكتور الطرابلسي عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق، وعنها يقول الدكتور فيصل «إن الذين أتيح لهم أن يقرؤوا هذه المحاضرة لا يزالون كالثملين من كل مقطع فيها للذي أبدع المحاضر وصفه بقلمه المرهف، وللذي أحسن اقتباسه بذوقه المصقول حين اختاره أولاً، ثم حين أنزله في سياقه من المحاضرة، فعل الصانع الماهر حين ينزل قطع العاج في مكانها من لوحة رائعة...».

ويرى الدكتور فيصل أن المحاضر انطلق فيها من كونه عربياً مسلماً مغرماً بالتاريخ مشغوفاً بالأدب، تتيح له الأقدار أن يطوف في ربوع الأندلس، فاجتمع على صياغتها أدب الطرابلسي، وثقافته التاريخية، وعقيدته، وحسه المرهف، وبصيرته الرائدة، وبصره الحاد.

ويقدّم نموذجاً من وصف الطرابلسي لقرطبة، وصف يرتفع إلى أن يكون شعراً إذ يقول الطرابلسي في وصفه «ألّف عمود من المرمر الملون ما بين أحمر وأبيض وأخضر، قد انتظمت صفوفاً متوازية لا يدرك لها الطرف نهاية، وألّفت بينها الأقواس المضاعفة المخططة بالبياض والحمرة، وارتفعت فوقها السقوف المقببة الشامخة. لقد كنت أتوقع أن أرى كل شيء إلا هذا الحلم الرائع فنسيت لحظة أنني أمام آبدة من أوابد الماضي، وخيّل إليَّ أن السواري المتراصة قد دبّت فيها الحياة، فأخذت تنقل الخطا على إيقاع الزمن، وأن هذه الحنايا المضاعفة المخططة أخذت تترنح نشوى في الفضاء، وأنني أمام عبد الرحمن الداخل صقر قريش يستعرض مواكبه المظفرة في أحد ميادين قرطبة».[1]

ويتابع الدكتور الطرابلسي وصفه لقرطبة حين يربط بينها وبين دمشق، إذ إنه

---

(١) معارف الكويت- محاضرات الموسم الثقافي الثاني ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م دار المعارف بمصر ص١٧٣.

أجرى على لسان دليله القرطبي الأسمر الذي ينحدر- لاشك- من أصل عربي هذا البيان السائغ العذب إذ يقول: «إن قرطبة عربية أموية دمشقية، فهي ابنة دمشق البكر، وكل ما فيها انعكاس لحضارة بني أمية هناك. لا أعتقد أن بينكم من يعرف دمشق، وأنا أيضاً لست أعرفها، ولكنني قرأت وحدّثت عنها كثيراً. فكنت كلما ازددت معرفة بها ازددت اقتناعاً بوحدة المدينتين والمدنيتين. لقد رأيتم هذا الصباح بعض بيوتها بساحاتها وبركها وأشجارها ورخامها. ويقال إن بيوت دمشق لا تختلف عن هذه البيوت في شيء. إن المرأة القرطبية تمضي في طريقها منتصبة القامة، شامخة الرأس، تشق طريقها بنظراتها الهادئة الرصينة كنساء دمشق. والكرم أصيل في طباع أهل هذه البلدة أصالته في طباع أهل دمشق».

ويسترسل في وصفه لقرطبة قائلاً: «وإن قرطبة لتنبسط في أكتاف «السيرامورينا» كما تنبسط دمشق في سفوح لبنان الشرقي، ويخترقها الوادي الكبير فيروي بساتينها ومنتزهاتها وقصورها كما يخترق دمشق نهرها فيروي بيوتها وجناتها.

كل شيء هنا انعكاسة عن شيء هناك. بل انظروا إلى لون بشرتي وبشرة مواطني فهو خير دليل على ما أقول... إن الفن الذي أعجبتم به في هذا المسجد هو الفن العربي القوي، فن جامع دمشق والمسجد الأقصى في بيت المقدس، وليس هنالك من فارق إلا أن أحفاد الأمويين الذين عمروا قرطبة أرادوا أن يقيموا الدليل على أن الولد النجيب كثيراً ما يبز أباه».[1]

ويشير الدكتور فيصل إلى المقارنات التي عقدها الطرابلسي بين الأشياء والأشخاص، بين مسجد قرطبة ومسجد غرناطة، بين الفن هنا والفن هناك إذ

---

(١) المرجع السابق ص١٧٤-١٧٥.

يقول: «إن السائح الذي ينقل الخطا بين غرف الحمراء وجنة العريف قد يرنحه السكر، وقد يخبله السكر، ولكنه لا يسعه متى خلا بنفسه إلا أن يعترف بأن فن الحمراء هو فن دولة مترفة مغرقة في النعيم والبذخ والأناقة، دولة مشرفة على الانهيار.. ولكن انظروا إلى وضوح الفن القرطبي وصفاته وصلابته.. إنه فن صحيح البنية، ينتصب بجرأة على ساقيه المفتولتين، ويتطلع إلى المستقبل بابتسام واطمئنان... إنه فن دولة تبنى وتشاد».[1]

ويذكر أن المحاضر الطرابلسي قد استخدم حكايات التاريخ ونصوصه، ويقارن بين الأحداث فيشير إلى قصة المعتمد بن عباد مع زوجته اعتماد التي كان يحبها حباً لا حدّ له، تلك القصة التي تتضمن طلب زوجته إليه أن تخوض في الطين عند رؤيتها نساء البادية في إشبيلية رافعات عن سوقهن في الطين، فما كان من المعتمد إلا أن أمر بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصيّر ذلك كله طيناً في القصر ليلبّي رغبة زوجته. ثم يقارن بين هذا النعيم ووضعه أسيراً في أغمات في المغرب، وكيف زارته زوجته وبناته وهن يدخلن عليه حافيات ضامرات يجررن أطمارهن فيتذكر حالهن من قبلُ قائلاً:

يطـأن في الطـين والأقـدام حافيـة كأنهـا لم تطـأ مسـكاً وكـافورا

وما أجمل تعقيب الطرابلسي على هذه الحكاية عندما يقول: «تراه حين قال هذا البيت كان يفكر في الطين؟ أتراه أدرك إذ ذاك أن كل يوم من أيام ذلك الطين لابد أن يعقبه يوم من أيام أغمات؟ أتراه أدرك أن الترف إلى زوال والقصور إلى دمار، وأنه لن يخلّد الملوك- تريد الملوك والرؤساء وأصحاب السلطان- إلا العمل الصالح في

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٥.

أنفسهم وخيراتهم».[1]

ولكم كان نظر المحاضر بعيداً عندما أنهى محاضرته قائلاً «لقد حدّثتكم عن المسجد الجامع في قرطبة كما رأيته، وقد مضى على خروج العرب من الأندلس أكثر من خمسمئة عام. فادعوا الله معي ألا يرينا في حياتنا، وألا يري أبناءنا وأحفادنا من بعدنا يوماً يأتي فيه رجل مثلي فيحدثهم بقلب موجع عن المسجد الأقصى كما حدثتكم اليوم عن مسجد قرطبة».[2]

تلك هي إحدى المحاضرات القيّمة للراحل الدكتور الطرابلسي رحمه الله، وأما محاضراته عام ١٩٥٦ على طلبة الدراسات العليا في معهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية فهي التالية.

٢- محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام:

وهي مجموعة المحاضرات التي ألقاها الدكتور الطرابلسي على طلبة قسم الدراسات الأدبية في معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية عام ١٩٥٦، ويقول في مقدمة هذه المحاضرات إنه قصد بالشعر الحماسي ذلك الشعر الذي نظمه الشعراء في معارك النضال القومي ممجّدين فيه بطولات الأبطال والشهداء، ومندّدين فيه بمظالم المستعمرين وأحابيلهم، ومستحثّين فيه همم مواطنيهم كي يمضوا قدماً في الكفاح حتى يستردوا حقوقهم المهضومة، وقد استبعد المحاضر من ذلك كله الشعر السياسي المحض، أي الشعر الذي يدور حول المنازعات الحزبية الضيقة فلا تعبق منه رائحة النضال، ولا يتصل بالقضية القومية الكبرى.

ولقد اتبع في محاضراته منهج مسايرة الحوادث التاريخية زمنياً، على أن يعرض

(١) المرجع السابق ص ١٨٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٨٥.

في ضوئها ما يتصل بها من شعر قومي وحماسي ليتضح مدى تجاوب الشعراء مع هذه الحوادث. وفيما يلي عرض موجز لهذه المحاضرات.

أ- **المحاضرة الأولى: الشعر الحماسي قبل إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨:**

أشار فيها إلى حملة نابليون على مصر، وحملة إبراهيم باشا على الشام وأسباب إخفاقها، كما أشار إلى حوادث ١٨٦٠ المؤلمة في لبنان، وارتقاء السلطان عبد الحميد عرش الخلافة العثمانية عام ١٨٧٦، ثم ذكر أن الباحث في الشعر السياسي قبل دستور عام ١٩٠٨ يستطيع أن يميز فيه اتجاهات ثلاثة:

١- الاتجاه الرسمي أو العثماني كما تجلّى لدى ناصيف اليازجي في مدح السلطان عبد العزيز، ولدى شكيب أرسلان في مدح السلطان عبد الحميد.

٢- الاتجاه التمردي أو الاستقلالي: ويقصد به ما قيل من شعر يظهر فيه السخط على الدولة العثمانية، وتعداد مظالم سلاطينها، والدعوة إلى الانفصال عنها والثورة عليها. وتجلّى ذلك في شعر أمين بن خالد الجندي الشاعر الحمصي وفؤاد الخطيب الذي نظم قصيدة عنوانها (شكوى الأمة) تحدّث فيها عن جواسيس العهد وسوء حال التعليم في المدارس، والضرائب الباهظة، ويحذر السلطان من سوء العاقبة.

وتتردد أصداء هذه الشكوى في آثار شعراء الشام في المهجر الأمريكي لذلك العهد، وتبدّى ذلك في شعر جورج عساف في قصيدة عنوانها (البوسفور).

٣- الاتجاه العربي: وهو التمرد ذو الصبغة العربية كما تجلّى في شعر إبراهيم اليازجي:

تنبّهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طمى السيل حتى غاصت الركب

فيمَ التعلل بالآمال تخدعكم ... وأنتُمُ بين راحات القنا سلب؟

ويقارن فيها اليازجي بين حال العرب من قبل وحالهم حالياً فيقول:

ألستُمُ من سطوا في الأرض واقتحموا	**شرقاً وغرباً وعـزّوا أينما ذهبوا؟**
فما لكم ويحكم أصبحتُمُ هملاً	**ووجه عزّكُمُ بالهون منتقب؟**
لا دولة لكُمُ يشتد أزركُمُ	**بها، ولا ناصر للخطب يُنتدب**
أقداركم في عيون الترك نازلة	**وحقُّكم بين أيدي الترك مغتصب**

ولليازجي قصيدة أخرى يقول فيها:

دع مجلس الغيد الأوانس	**وهوى لواحظها النواعس**
أين النعيم لمن يبيت	**على بساط الذل جالس؟**

كما أن له قصيدة ميمية ذاعت على ألسن العرب في أواخر القرن التاسع عشر، ويقول فيها:

سلام أيها العرب الكرام	**وجاد ربوعَ قطركم الغمام**
لقد ذكر الزمان لكم عهوداً	**مضت قدماً فلم يضع الذمام**

ومن شعراء هذا الاتجاه نجيب الحداد الذي حثَّ العرب على التخلص من نير العثمانيين فقال:

آن الأوان لأن نخاطر بالدم	**من لم يخاطر بالدم لم يسلم**

ترددت أصداء هذه الفكرة العربية في آثار شعراء الشام في المهجر، وظهر ذلك في شعر جورج عساف.

ولم تقتصر هذه الفكرة العربية على الشعراء وإنما ظهرت في الكتابة النثرية لدى المفكرين المشهورين عبد الرحمن الكواكبي وأديب إسحاق.

ب- **المحاضرة الثانية بين إعلان الدستور وخلع عبد الحميد:**

هتف شعراء الشام شأن شعراء مصر والعراق للدستور الذي أعلنه السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨، ويعرض الدكتور الطرابلسي لاتجاهات الشعر في هذه المرحلة، فيشير إلى تبشير الأمة بالدستور وشكر الخليفة على منته، وهذا ما أشار إليه الشاعر شكيب أرسلان وأخوه عادل أرسلان، فهذان الأخوان شاركا الأمة العثمانية أفراحها وردّا الفضل إلى الخليفة، ويشكر الشاعر نقولا فياض الجيش وضباطه الأحرار في الترحيب بالدستور، ويخاطب الشاعر فؤاد الخطيب الشهداء الأحرار الذين ذهبوا في أيام الطغيان الحميدي ضحية مقاومتهم للاستبداد ومطالبتهم بحقوق الشعب، وينحو الشاعر سعيد شقير هذا المنحى في تحية الشهداء معترفاً أن الدستور هو ثمرة استشهادهم ونضالهم.

ويصوّر كل من فؤاد الخطيب وسعيد شقير وعبد الله البستاني مقابح العهد الماضي، ويشير الشاعر نقولا رزق، وهو أحد مهاجري الأدباء الشاميين إلى مصر، إلى أن الدستور وضع حداً للتعصب الديني، وأقر المساواة بين أبناء الأمة العثمانية على اختلاف مللهم.

ويذكر الدكتور الطرابلسي في محاضرته أن ثمة إساءة لفهم معنى الحرية لدى بعضهم فيشير إلى قصيدة للشاعر توفيق سلوم يحمد الله فيها على عهد الحرية ونعمها التي لا تحصى، ويحمل على كل من أساء تفسيرها، ويحاول في قصيدته أن يحدد مفهوم الإنسان الحر إذ يقول:

ما الحرُّ من يرتكب الجرائما … ويفعل المنكر والمآثما
الحرُّ ذو الضمير والوجدان … والطاهر الفؤاد واللسان

ويصور جرجي سعد حال الصحافة في تلك الأيام.

ولم يكن شعراء الشام يوجهون الخطاب إلى العرب أو إلى الترك بل إلى بني عثمان أي إلى الشعبين العربي والتركي معاً، بوصفهما قد أصبحا يؤلفان في حمى الدستور أمة واحدة هي الأمة العثمانية، ذاهبين في ذلك مذهب شوقي حين يقول:

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب ... حيَّاك من يبعث الموتى ويحييها

إلا أن السلطان عبد الحميد كان قد فطر على الاستبداد فشجّع الرجعية وقوّى الأحزاب المحافظة ومدّها بالمال، وأخذت تلك الأحزاب تتنكر للدستور، فثار الضباط عليه وخلعوه، وهذا ما دفع شعراء الشام إلى تصوير سقوطه عن عرشه، فيقول فؤاد الخطيب في قصيدة عنوانها (عبرة الدهر):

سلوه وقد مال السرير المطنّب ... أذلك عن عدل أم الدهر قلّب؟
تردد لا يدري، وفي النفس عزة ... أيخضع أم يأبى؟ أم الموت أطيبُ؟
فيا ساعة ما كان أفدح هولها ... وقد أخذت تلك العساكر تقرب
فكم صائح فيهم، وكم متوّعد ... وكم هاجم بالسيف لا يتهيّب
ففاض الدم الجاري وقد عزَّ أن ترى ... بغير دم حرية الشعب تكسب

ويذكر الطرابلسي قصيدة لفارس الخوري وجّه فيها الخطاب العنيف إلى السلطان عبد الحميد الذي لم يحسن القيام على ما خلّفه له أسلافه من تراث ضخم.

الله أكبر فالظلّامُ قد علموا ... لأي منقلب يفضي الألى ظلموا
هبطت من قمة الأمجاد منحدراً ... كصخرة حطَّها من شاهق عَرِمُ!

وإذا كان فارس الخوري عنيفاً في مخاطبة عبد الحميد فإن بشارة الخوري كان رقيقاً في خطابه إذ يقول:

صاحب التاج ! أين أنت من التاج ومن صولجانك المفقود؟

صاحب العرش ! أين أنت من العرش وقد كان محكم التوطيد؟

عبرة أنت للورى رسمتها إصبع الله في كتاب الوجود

ج- **المحاضرة الثالثة: من خلع السلطان عبد الحميد حتى إعلان الحرب العالمية الأولى:**

رأى العرب بعد خلع السلطان عبد الحميد أن العدالة والمساواة والإخاء التي تطلعوا إليها ما تزال حبراً على ورق، فخيّم عليهم التشاؤم الذي عبّر عنه الشعراء .

فها هو ذا فارس الخوري ينظم قصيدة عنوانها «أيتها العدالة» تعبّر تعبيراً واضحاً عن الشعور بالخيبة إذ يقول فيها:

فبين الناس جور واعتداء عزيز القوم يعبث بالذليل

وسوق الزور رائجة، وفيها يباع الحق بالثمن القليل

لقد حلفوا اليمين وأحرجوها على الإخلاص والحزم الأصيل

ألا سرعان ما حنثوا ومانوا وعادوا للخيانة والخمول

ومدوا للرشا كفاً خسيساً وباعوا بالنضار دم القتيل

فإن الشعب لا يرضيه قول وحاجتنا إلى الرجل الفعول

وتبدّى هذا التشاؤم في شعر المهجر على لسان الشاعر القروي، وسادت نزعة التتريك واستبعاد اللغة العربية، وهذا ما دفع العرب إلى تأسيس الجمعيات العربية العلمية والفكرية والسياسية للدفاع عن كيانهم، وفي شعر شعراء الشام خلال هذه

الفترة موقفان متباينان تجاه عملية التتريك، أولهما هو التمسك بالوحدة العثمانية، وثانيهما الاتجاه العربي النضالي ضدّ التتريك وأنصاره تجلّى في عتاب الأتراك على لسان سليمان التاجي الفاروقي الذي وجّه خطابه إلى السلطان محمد رشاد مبيناً فضل العرب وغيرته على اللسان العربي:

وكل فضل أتى فالعرب مصدره	**بل أيُّ فضل أتى لم تحوه العرب؟**
لسانهم أخلق الإهمال جدته	**فبات ينعى على الكتاب ما كتبوا**
تمشت اللهجة العجماء فيه إلى	**أن أنكرته بنوه الخُلَّص النجب**
بضع وعشرون مليوناً لهم لغة	**تموت ما بينهم؟ يا شدّ ما غلبوا !**
هذي المدارس محظور تعلمها	**فيها، فمن أين نبغي؟ كيف تكتسبُ؟**

وهذا المذهب نفسه في عتاب الأتراك والاعتزاز بماضي العرب تجلّى أيضاً في قصيدة نظمها فؤاد الخطيب.

إلا أن العتاب لم يجد نفعاً، فاضطر الشعراء إلى استثارة الهمم العربية والدفاع عن اللغة العربية والحق في الحياة، ويورد المحاضر قصائد تتضمن هذا التوجه على لسان الفاروقي وفؤاد الخطيب.

ويورد المحاضر أيضاً قصائد تدعو إلى العنف في مخاطبة الأتراك نظمها فؤاد الخطيب وعبد الحميد الرافعي.

وفي سنة ١٩١١ نشبت الحرب التي استولى فيها الطليان على طرابلس الغرب، ونشبت الحرب البلقانية التي اتحد فيها البلغار والصرب واليونان ضدّ الأتراك، إلا أن الشعراء في بلاد الشام وقفوا إلى جانب الأتراك في حرب طرابلس ضدّ الطليان، ويورد الطرابلسي قصيدة حماسية للفاروقي يحث فيها العثمانيين والعرب لمواجهة

العدوان على طرابلس الغرب وكذلك فعل عبد الحميد الرافعي وسليمان ظاهر واسكندر الخوري وشكيب أرسلان، كما يورد قصائد شعرية حماسية بمناسبة الحرب البلقانية نظمها أمين ناصر الدين وشكيب أرسلان.

د- **المحاضرة الرابعة: الفترة الأولى من الحرب العالمية الأولى وشهداء السادس من أيار عام ١٩١٦:**

كان لإعلان الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ أثر في توجه شعراء الشام نحو الفكرة الاستقلالية العربية والمعاني الحماسية التي ألهمتهم إياها، وما كان من الأتراك إلا أن فرضوا الأحكام العسكرية وحاولوا القضاء على كل صوت عربي يجرؤ على المناداة أو المطالبة بحقوق العرب الدستورية، وكان جمال باشا السفاح والياً على سورية وهو من جماعة الاتحاد والترقي ذات النزعة الطورانية، وفي عهده علّق الأحرار على أعواد المشانق في السادس من أيار عام ١٩١٦، وكانت هذه الحادثة في إعدام الشهداء من الحوادث القومية الكبرى في بلاد الشام.

ويعرض الدكتور الطرابلسي لمواقف الشعراء في تلك الفترة، فيذكر قصيدة (هل تذكرين؟) لمحمد الشريقي كما يذكر أبياتاً لحليم دفوس يصف فيها سجنه بعالية، وفي أبيات الشريقي إشارة إلى شهداء السادس من أيار ولقائهم الموت، وهم يرددون الأهازيج الوطنية، ويتحدون جلاديهم.

ويذكر المحاضر قصيدة للشاعر الحمصي جورج أطلس تزخر بالعواطف التي تعتلج في النفوس من حزن على الشهداء وحقد على الأتراك، كما يذكر باقة من شعر شعراء المهجر، ومن الشعر الذي ذكره قصيدة الشاعر القروي التي يشير فيها إلى أن الحبل الذي شدت عقدته على أعناق الشهداء سيكون سبباً لتوحيد العرب حول معتقدهم القومي، وفيها يقول القروي:

خير المطالع تسليم على الشهدا أزكى الصلاة على أرواحهم أبدا
فلتنحن الهام إجلالاً وتكرمة لكل حر عن الأوطان مات فدى
أكرم بحبل غدا للعرب رابطة وعقدة وحّدت للعرب معتقدا

ويورد المحاضر أبياتاً من قصيدة للشاعر المهجري يوسف عساف في الحادثة نفسها، وأبياتاً من قصيدة للشاعر المهجري نسيب عريضة وموضوعها (الشعب الذي لا يُفيق).

وكان إعدام الشهداء سبباً في تعجيل الشريف حسين لإعلان ثورته ضد الأتراك، وأطلق شعراء الشام العنان لعواطفهم فمجدوا الثورة وأشادوا بالشهداء الأبرار. ويقدّم المحاضر قصيدة للشاعر خير الدين الزركلي مثالاً على ذلك الواقع، وعلى الوتر نفسه يضرب الزركلي في قصيدة عنوانها (العرب والترك) يشير فيها إلى غدر الأتراك بعهودهم واضطهادهم العرب اضطهاداً حملهم على الثورة، كما يقدّم المحاضر منتخبات من قصيدة مشهورة لخليل مردم بك في رثاء الشهداء، وعدة أبيات للشاعر بشارة الخوري قالها في تمجيد تضحيات هؤلاء الشهداء.

هـ - المحاضرة الخامسة: الفترة الثانية من الحرب العالمية الأولى (الثورة العربية وذيولها):

تناول المحاضر الطرابلسي فيها ما ألهمته الثورة التي قادها الشريف حسين لشعراء بلاد الشام للتحرر من الاستبداد التركي، فأورد مقاطع من قصيدة الشاعر فؤاد الخطيب التي يحيي فيها الشريف حسين، ويدعو العرب إلى الالتفاف حوله والتجرد من كل نزعة إقليمية والانصهار في الفكرة العربية الشاملة ويقول فيها:

لمن المضارب في ظلال الوادي ريّانة الجنبات بالورّاد
الله أكبر تلك أمة يعرب نفرت من الأغوار والأنجاد

لبيك يا أرض العروبة واسمعي	**ما شئت من شدوي ومن إنشادي**
أنا لا أفرّق بين أهلك إنهم	**أهلي وأنت بلادُهم وبلادي**
ولقد برئت إليك من وطنية	**بتراء تؤثر موطن الميلاد**

ويعرض المحاضر للأحداث التي رافقت الثورة وغدر الحلفاء واتفاقية سايكس بيكو، ومناداة بالأمير فيصل ملكاً على سورية، ويورد مقاطع من قصيدة محمد الفراتي التي يهنئ فيها العرب شامتاً بالترك، كما يورد أبياتاً من قصيدة خير الدين الزركلي في وصف غدر الحلفاء وانخداع الشعوب بمبادئ ولسن، وثمة أبيات ذكرها المحاضر لمصطفى الغلاييني بعنوان (مجلس سان ريمو).

ويذكر المحاضر أيضاً عدة أبيات للشاعر شفيق جبري يخاطب فيها العرب منبهاً إياهم على المضي في ثورتهم لأن حلفاءهم خذلوهم، كما يورد مقاطع من قصيدة لخير الدين الزركلي يدعو فيها العرب إلى الحذر والاستعداد، ومقاطع من قصيدة لأحمد عبيد ولخير الدين الزركلي يحمل فيها الزركلي على المتزعمين المأجورين الذين اختلفوا فيما بينهم، ومهدوا بمنازعاتهم أمام الأجنبي طريق التدخل.

ومن الشعراء الذين استشهد المحاضر بقصيدتهم الشعرية في الدعوة إلى الالتفاف حول الفكرة الوطنية ونبذ الاختلافات الطائفية حليم دموس ويقول فيها:

إن ترومـوا قـوة فاتحـدوا	**فاتحـاد الشعب مرقـاة الهمـم**
واختلاف الشعب داء مفصـل	**وهو في أدياننـا خطب عمـم**
فاحسبوا أدياننا واحدة	**واجعلوا قبلتكم هذا العلم**

وفي المحاضرة أيضاً إشارة إلى ما قبل في رثاء الشريف حسين على لسان خليل مردم والفراتي، وعلى لسان إبراهيم طوقان في رثاء فيصل، ولسان الشاعر عمر أبي

ريشة في الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٩، ولسان الشاعر سليمان العيسى في ذكرى المولد النبوي بعنوان (وحي المولد) وقد نظم قصيدته عام ١٩٤٦ ويذكر فيها انتفاضة الصحراء بقيادة الحسين لبعث المجد الغابر، وفي العام نفسه ينظم قصيدة أخرى بمناسبة الذكرى الثلاثين لإعلان الثورة العربية ويقول في مطلعها:

هاتها. تلك خمرة الأمجاد   أنا صادٍ، وأنت يا شعر صاد

هات يا شعر ما يروّي غليلي   ويهز الشرار تحت الرماد

و- <u>المحاضرة السادسة: ميسلون ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠</u>

أشار المحاضر إلى اتفاق الحلفاء على تطبيق نظام الانتداب في بلاد الشام بعد تقسيمها نصفين يكون الشمالي منهما للفرنسيين والجنوبي للإنكليز، وأبان تحرك قوى الجنرال الفرنسي (غورو) نحو دمشق في الرابع والعشرين من شهر تموز عام ١٩٢٠ وتصدي الشهيد يوسف العظمة لحملة غورو وكيف انتصر الباطل القوي المدجج بالسلاح على الحق الضعيف الأعزل.

وغدت معركة ميسلون معركة رمزية عظيمة بمعناها ومغزاها ومصدر إلهام لا ينضب، وقد نظم في هذه المعركة شعر كثير، ومن الشعراء الذين مجدوا هذه الثورة خير الدين الزركلي في قصيدته التي يقول فيها:

الله للحدثان كيف تكيد   بردى يفيض وقاسيون يميد

لهفي على وطن يجوس خلاله   شذاذ آفاق شراذم سود

شرُّ البليّة، والبلايا جمة   أن يستبيح حمى الكرام عبيدُ

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف المعركة واستبسال يوسف العظمة وجنوده فيقول:

غلت المراجل فاستشاطت أمة عربية غضباً وثار رقود

زحفت تذود عن الديار وما لها من قوة فعجبت كيف تذود

الطائرات محوّمات حولها والزاحفات صراعهن شديدُ

ولقد شهدت جموعها وثّابة لو كان يُدفع بالصدور حديدُ

ولا ينسى الشاعر في قصيدته بعد ذلك أن يحمل على الحلفاء إذ يقول:

في ذمة الأجيال نهضة أمة أودى بها التهويل والتهديدُ

وثقتْ بعهد الأقوياء فأسلست هيهات ما للأقوياء عهود

ولكنه واثق بحق أمته في الحياة:

والشعب إن عرف الحياة فما له عن درك أسباب الحياة محيدُ

ويعرض المحاضر لموشحة مؤثرة للزركلي عنوانها (العذراء) صوّر فيها بطريقة قصصية رمزية احتلال الفرنسيين لسورية، وقد اشتملت القصيدة على عدة شخصيات منها العذراء وهي سورية أو عاصمتها دمشق، والهيثم الشهيد هو يوسف العظمة، والطارق المتنكر الوقح هو الفرنسي المنتدب ... الخ.

وكان الإطار القصصي الرمزي الذي اختاره الشاعر لقصيدته الحماسية المؤثرة هو بلا ريب وليد التضييق الفكري الشديد الذي كانت تعانيه سورية أيام الانتداب.

وتمثّل قصيدة خليل مردم بك عام ١٩٢٠ بعنوان (شهيد ايرلندا) هذا الاتجاه الجديد الذي اتجهه الشعر الحماسي في بلاد الشام خلال تلك الفترة.

ويورد المحاضر قصيدة أخرى لخليل مردم بك عام ١٩٣٥ بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لاستشهاد يوسف العظمة ويقول فيها:

أ يوسـف، والضـحايا اليـوم كثـر ... ليهنـك كنـت أول مـن بناهـا
فـديتك قائـداً حيـاً وميتـاً ... رفعـت لكـل مكرمـة صـواها
فيـا لـك راقـداً نبّهـت شـعباً ... وأيقظـت النـواظر مـن كراهـا
ويـا لـك ميّتـاً أحييـت منـا ... نفوسـاً لا تقـر عـلى أذاهـا
ويـا لـك عـاثراً أنهضـت منـا ... عـزائم بعـد مـا وهنـت عراهـا

كما يورد مقاطع من قصيدة الشاعر المهجري (إيليا أبي ماض) التي حيّا فيها الشهيد العظيم يوسف العظمة قائلاً:

بـأبي وأمـي في العـراء موسـد ... بعـث الحيـاة مطامعـاً ورغابـا
لمـا ثـوى في ميسـلون ترنّحـت ... هضـباتها وتنفّسـت أطيابـا
هذا الذي اشتاق الكرى تحت الثرى ... كـي لا يـرى في جلّـق الأغرابـا
وإذا نبـا العـيش الكـريم بـها جـد ... حـرٍ رأى المـوت الكـريم صـوابا

وفي عام ١٩٤٦ حينما جلت الجيوش الأجنبية عن سورية يقول بدر الدين الحامد محيياً يوم الجلاء ومذكراً بشهيد ميسلون قائلاً:

يـوم الجـلاء هـو الـدنيا وزهرتهـا ... لنـا ابتهـاجٌ وللبـاغين إرغـام
يـا راقـداً في روابي ميسـلون أفـقْ ... جلـت فرنسـا، فما في الـدار هضّـام

ويورد المحاضر أبياتاً للشاعر شفيق جبري يخاطب فيها الفرنسيين الراحلين يوم الجلاء، كما يورد أبياتاً للشاعر القروي في رثاء الشهيد يوسف العظمة، ويذكر الحديث الذي دار بين ساطع الحصري ويوسف العظمة في آخر لقاء بينهما عندما ودّعه قائلاً بأنه سيتوجَّه إلى الجبهة، وترك ابنته الوحيدة ليلى أمانة لدى الحصري ورفقائه.

ز- المحاضرة السابعة: فترة اليأس التي أعقبت ميسلون ١٩٢٠- ١٩٢٥:

عاشت بلاد الشام خمس سنوات من القنوط والذهول بعد معركة ميسلون، وصوّر الشعراء هذا الذهول وذلك القنوط في شعرهم كما تجلّى ذلك في شعر الزركلي وحليم دموس وبدر الدين الحامد الذي بكى في ذكرى ٨ آذار عيد استقلال سورية الملك فيصل ووصف رحيله وصحبته عن دمشق.

ومن هذا الشعر ما كان يصطبغ بصبغة وجدانية ذاتية كما تبدّى في شعر شفيق جبري في قصيدة له عنوانها (أنا والحمام) حيث ناجى الحمام الحرّ الطليق وحدّثه بحديث سلاسله وسجونه، تلك السلاسل التي كانت تنوء آنئذ بالشعب كله في الوطن الذي انقلب كله سجناً كبيراً. إلا أن مصطفى الغلاييني ينظم قصيدة أبان فيها أن الشعب قد بدأ يضمّد جراحه ويتحفز لاستئناف النضال.

ويشير المحاضر إلى أن المتتبع للشعر الوطني في الشام خلال السنوات الأولى من استقرار الانتداب يلاحظ أن معظم هذا الشعر يضرب على وتر الوحدة القومية، ويدعو إلى التمسك بها ونبذ العصبيات الإقليمية والمذهبية والعنصرية، ويشهد المحاضر بقصيدة لخير الدين الزركلي عام ١٩٢٣ صوّر فيها الشاعر البلبلة السياسية والأوضاع الانقسامية المستجدة في البلاد أصدق تصوير، ودعا بني قومه العرب إلى التضامن والاتحاد. كما يستشهد بقصيدة أخرى نظمها عام ١٩٢٤ يضرب فيها على الوتر نفسه فيندد بتخاذل العرب وانقسامهم إذ يقول:

واشقوة العرب اللباب بما لهم ... ورجالهم وفواضل الألباب
نزلوا بكل تنوفة وتفرقوا ... شيعاً وأحزاباً على أحزاب
أيام قدّست اللغات وأصبحت ... هي مرجع الأنسال والأنساب

أيـام ألَّـف كـل شـعب وحـدة　　موصـولة الأسـباب بالأسـباب

تشـقى الجزيـرة في تنابـذ أهلهـا　　وتبيـت طعـم بـلى ورهـن تبـاب

ويستشهد المحاضر أيضاً بشعر بدوي الجبل الذي دعا فيه إلى جمع الشمل على أسس قومية صحيحة إذ يقول:

فـيمَ التخـاذل، لا فلَّـت جمـوعكم　　والدهر يزحف بـالأرزاء والنـوبِ

وفي هذه القصيدة دعوة للوحدة العربية وتبيان مقوماتها فيقول:

كل الربوع ربـوع العـرب لي وطـن　　مـا بـين مبتعـد منهـا ومقـترب

إن لم تكن وحدة الأنساب جامعة　　فإننـا جمعتنـا وحـدة الأدب

للضـاد ترجـع أنسـاب مفرقـة　　فالضـاد أفضـل أم بـرّة وأب

تفنى العصور وتبقى الضاد خالـدة　　شجى بحلق غريب الدار مغتصب

كما يستشهد المحاضر بقصيدة للشاعر خليل مردم بك عنوانها (لوجه الوحدة) يستنكر الشاعر في مطلع قصيدته تقاطع أبناء الوطن الواحد مبيناً ما في هذا التقاطع من أذى للجميع فيقول:

فـيمَ التقـاطع، والأرحـام واشـجة　　والـدار جامعـة والملتقـى أمـم؟

أفي الحصافة صدع الشمل في زمـن　　ونحـن أحـوج مـا نقـوى ونلتـئم؟

وهل نـرى فئة في أمرهـا انقسـمت　　إلا وأصـبح عقبـى أمرهـا النـدم؟

وينتقل الشاعر ليبين أعمال الأجنبي في البلاد، ثم يستنهض همم مواطنيه ويستثير نخوتهم، ويندّد بالاختلافات الطائفية والأوضاع الانقسامية التي أرادها المستعمر.

وقد حمل الشاعر بدوي الجبل على أعوان الأجنبي والمتزلفين له، فيورد المحاضر أبياتاً للشاعر حذّر فيها مواطنيه من هؤلاء الأذناب الذين اتخذوا موالاة الغرب شعاراً لهم فيقول:

وخذوا شعاركم القلى لعصابة ... تخذت موالاة الغريب شعارها

قد لفقت أعذارها فتريثوا ... الله ليس بقابل أعذارها

ح- المحاضرة الثامنة: الثورة السورية ١٩٢٥-١٩٢٦:

تناول المحاضر في هذه المحاضرة بطولة الثوار السوريين، فذكر صورة الوثبة على (التنك) كما رسمها الشاعر القروي في قصيدة يخاطب بها قائد الثورة السورية قائلاً:

ولما صرت من مهج الأعادي ... بحيث تذيقها السم النقيعا

وثبتَ إلى سنام التنك وثباً ... عجيباً علّم النسر الوقوعا

فخرَّ الجند فوق التنك صرعى ... وخرَّ التنك تحتهم صريعا

فيا لك غارة، لو لم تذعها ... أعادينا لكذّبنا المذيعا

ويذكر المحاضر في قصيدة أخرى صورة للشاعر نفسه رسمها على لسان (دى جوفنيل) المندوب السامي الفرنسي الذي كان يسوّغ الحملات الحربية العنيفة ضدّ الثوار، كما يذكر صورة أخرى للشاعر خير الدين الزركلي يصوّر فيها وقائع الثورة التي جرت في جبل العرب وسميت باسم القائد الفرنسي (ميشو) الذي قتل في تلك المعركة.

وتناول المحاضر أيضاً في محاضرته تدمير دمشق بمدافع الفرنسيين، فصوّر إجرامهم على لسان الشاعر محمد البزم إذ يقول:

النـــار محدقـــة بجلّـــق بعـــدما
تركـت حمـاة عـلى شـفير هــار

تنساب في الأحياء مسرعة الخطا
تـــأتي عــلى الأطــمار والأعــمار

والقـــوم منغمســـون في حمّاتهـــا
فتكـــاً بكـــلّ مـــبرأ صـــبّار

والطفـل في يـد أمـه غـرض الأذى
يرمـى، ولـيس بخـائض لغـمار

والشـــيخ متكئـــاً عـــلى عكـــازه
يرمـى، ومـا للشـيخ مـن أوزار

صبرت دمشق على النكال ليالياً
حـرم الرقـاد بهـا عـلى الأشـفار

الوابـل المـدرار مـن حمـم اللظـى
متواصـــل كالوابـــل المـــدرار

وأبان المحاضر في جانب من محاضرته التحية التي وجهها الشاعر محمد البزم لقائد الثورة السورية سلطان باشا الأطرش وعترته إذ يقول:

غـادر دمشـق ويمّـم دار (سـلطانا)
على السـويداء، لا تحفـل بمـن مانـا

وجـل بعـترة معـروف وأخـوتهم
تلـقَ الإنـاء وتلـقَ الأسـد فرسـانا

كما حيّا الشاعر نفسه البطل الشعبي حسن الخرّاط قائلاً:

مـن مبلـغ مـن بيـاني كـل شـاردة
فتى العلا (حسـناً) حمـداً وشـكرانا

يـا مـؤثر المـوت في إنقـاذ موطنـه
ركبت صعباً، فـلا لاقيت خـذلانا

ثم تناول المحاضر في محاضرته بعض ما قاله الشاعر خير الدين الزركلي في رثاء الشهيد البطل أحمد مريود والشهيد البطل فؤاد سليم، إذ يقول في وصف مصرع الشهيد أحمد مريود:

شـقّ جـنح الظـلام يمشـي إلـيهم
رابـــط الجـــأش مشـــية الرئبـــالِ

قـــائلاً للحيـــاة: غـــيريَ غُـــرّي
قـــائلاً للنعـــيم: غـــيريَ والِ

ويقول في رثاء الشهيد فؤاد سليم:

صـــــدقت والله عهـــدَك لا جــفّ دمعـــي بعـــدَك
قضـــيت حـــق العـــوالي وأنـــت تقتـــاد جنـــدك
عملـــت للمجـــد حتـــى أدركـــت بـــالموت مجـــدك

وكان المحاضر يعقّب على قصائد الرثاء، ويذكر ملاحظاته عليها، ولم يكتف المحاضر في محاضرته بذكر بطولة الثوار وذكر جرائم الفرنسيين وتقديم التحية لأبطال الثورة، وذكر شعر الرثاء لشهدائها، وإنما تناول في محاضرته أيضاً محاربة الدعوات الطائفية المخرّبة والإشادة بروح التضامن القومي وتناسي الخلافات المذهبية والتعالي عليها كي يسدَّ على الأجنبي المتربص باب الإفساد والتفريق، وقدّم شواهد من شعر خليل مردم بك ووديع البستاني كما استشهد بشعر الشاعر القروي، الشعر الحافل بالوعي القومي العربي ومحاربة النزعات والعصبيات الطائفية.

وأبان المحاضر في محاضرته مهاجمة القروي وأحمد عبيد لنظام الانتداب، كما أوضح أن الثورة السورية لم تكن في نظر الشعراء في بلاد الشام ثورة الشام وحدها بل ثورة العرب ولخير العروبة، وها هو ذا الشاعر القروي يخاطب بعض من لا تزال العصبيات المذهبية تتحكم فيهم فيقول لهم:

أيـن الـتراث، تـراث أبطـال الحمـى أيـــن البقيـــة مـــن بنـــي غســـان
لا تنكروهـــا، فالـــدم العـــربي قـــد جلّـــت أصـــالته عـــن النكـــران

ويذكر المحاضر أن شفيق جبري حين مجّد الثورة مجّدها على أنها غضبة للعروبة إذ يقول:

ثارت دمشق، وملء الدهر ثورتها لها على الدهر تبجيلٌ وتمجيد
خفّاقة بشباب العرب وارفة يحنو على حوضها الشمُّ المناجيدُ

ويدعو المحاضر طلابه إلى الاستماع إلى محمد الشربقي وهو يصف شباب الثورة وقد ثملوا بكأس العروبة.

كما يدعوهم إلى الاستماع إلى الحوماني وهو يتغنى بانتصار الثوار ودخولهم إلى دمشق، والعلم العربي يخفق فوق رؤوسهم.

هم الشباب ربيع الدهر رنحهم من العروبة كأس ملؤها الشمم

وحينما انتصر سعد زغلول للثورة السورية وأعلن عطفه عليها طلب إلى المصريين مدّ يد المعونة لمنكوبيها خاطبه الشربقي بأبيات تمثل الفكرة العربية التي كان يدين بها رجال الثورة أصح تمثيل، منها قوله:

يا رمز مصر، وحسب العرب جامعة هذا اللسان وتاريخٌ به العِظَمُ
يا رافعاً علم الإخلاص منتصراً ألا وصلت بحبل العرب ما قصموا
إن العروبة يا زغلول قائدنا فاجهر كما جهر الأتراك والعجم
وامدد يديك وصافح كل من نطقوا بالضاد يقبل عليك القوم كلُّهُمُ

ويبين المحاضر في نهاية محاضرته أن الثورة السورية كانت بروحها العربية الغامرة متممة للثورة الكبرى التي سبقتها، لأن العواطف التي تنميها في النفوس، والجراح التي تدميها، هي الأسس التي يقوم عليها فيما بعد وجود الأمة واستقلالها وحريتها.

۞ ۞ ۞ ۞ ۞

الفصل الرابع

الطرابلسي محققاً

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الطرابلسي محققاً

نحاول في هذا الفصل تعرّف الطرابلسي محققاً، إذ إنه عمل على تحقيق مخطوطة «زجر النابح: مقتطفات» حيث جمعها وحققها وصدرت في طبعتها الأولى عام ١٩٦٥م والثانية عام ١٩٨٢، كما عمل على تحقيق رسالة «الصاهل والشاحج». وفيما يلي عرض لهذين الكتابين المحققين.

أولاً- «زجر النابح: مقتطفات»: يذكر جُلُّ المؤرخين الذين عنوا بترجمة أبي العلاء وذكر تصانيفه هذا الأثر، واصفين إياه بأنه كتاب يتصل بديوانه (لزوم ما لا يلزم). ومن هؤلاء ياقوت الحموي صاحب كتاب (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) المعروف بمعجم الأدباء، إذ يشير إلى (زجر النابح) قائلاً: «إنه يتعلق بلزوم ما لا يلزم، وذلك أن بعض الجهال تكلّم على أبيات من لزوم ما لا يلزم يريد بها التشرّر والأذية، فألزم أبا العلاء أصدقاؤه أن ينشئ هذا فأنشأ هذا الكتاب وهو له كاره».

ومن المؤرخين الذين أشاروا إلى ذلك ابن العديم في كتابه «الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري»، ويوسف البديعي في كتابه (أوج التحرّي)، والقفطي في (إنباه الرواة) وسبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) وشمس الدين الذهبي في (تاريخ الإسلام)، وابن فضل العمري في (مسالك الأبصار)، والصفدي في (الوافي بالوفيات).

قام الطرابلسي بتحقيق المقتطفات من الكتاب، وجاء في مقدمة الكتاب نسبة

الكتاب إلى أبي العلاء المعري حيث أشار إلى المؤرخين الذين ذكروا نسبة الكتاب إلى أبي العلاء، وأبان كيف تمّ العثور على هذه المقتطفات من الكتاب، ووصف المخطوطة، ووقف على موضوع الكتاب فأوضح أن «زجر النابح» هو أحد التصانيف العلائية التي تكشف عن الصراع الذي كان يدور في حياة أبي العلاء نفسه حول آثاره وآرائه ومسلكه في حياته بينه وبين نفر من خصومه.

ولقد أصبح مشهوراً أن أبا العلاء لقي في حياته كثيراً من العنت شأن كثير من أنداده أولي المذاهب الجديدة والأفكار الجريئة، وقد ذهب بعض خصومه خلال نقدهم إياه إلى حد توجيه التهم إليه في دينه والتشكك في معتقده.

ومبعث هذه التهم في الأكثر الغالب أمور ثلاثة: **أولها** مسلك المعري في حياته ونسكه وزهده وترهبه وامتناعه عن أكل الحيوان وما ينتجه. و**ثانيها** كتاب (الفصول والغايات) وهو كتاب أملاه المعرّي بأسلوبه المنمّق المعروف في تمجيد الله وحمده، فزعم خصومه أنه أراد به معارضة القرآن، وقد نشرت بعض أقسام هذا الكتاب منذ سنين فقضى نشرها على هذه المزاعم الواهية. و**ثالثها** – وهو الأهم- ديوانه المشهور (لزوم ما لا يلزم) وما ورد فيه من أقوال لا يخلو بعضها من جرأة وعنف ونقد قاس لرجال الأديان وأصحاب المذاهب والطرق من كل ملة وطائفة، كما لا يخلو بعضها الآخر من غموض يبعث على التساؤل والاستفسار. وهذه الأقوال في كلتا الحالتين في حاجة إلى توضيح يبيّن حقيقة المقصود منها.

وقد حاول أبو العلاء راضياً حيناً، وكارهاً أحياناً، أن يدفع عن نفسه هذه التهم، واضطر أن يزج نفسه في مناظرات مع عدد من خصومه. ومن أشهر هذه المناظرات تلك الرسائل التي تبادلها المعري في أواخر حياته مع داعي الدعاة الفاطمي. وكل من قرأ هذه الرسائل المشهورة ووازن فيها بين لهجة داعي الدعاة

حين يهاجم بعنف، ولهجة أبي العلاء وهو يدّري خصمه بلطف، أدرك مدى شقاء المعري بهذا الجدل العقيم. وكان محور المناظرة في هذه الرسائل قصيدة أبي العلاء التي يذكر فيها مسلكه الانعزالي الذي ارتضاه لنفسه، ومطلعها:

غدوت مريض العقل والدين فالقني   لتسـمع أنبـاء الأمـور الصـحائح

ولكن في (لزوم ما لا يلزم) أبياتاً أخرى في غير هذه القصيدة كانت أيضاً مثاراً لكثير من التأويل والتقوّل. ويبدو أن أبا العلاء آثر التزام الصمت تجاه من طعن عليه في هذه الأبيات لولا أن بعض أصدقائه ومحبيه ألحوا عليه أن يدفع عن نفسه التشرر والأذيّة فأملى (زجر النابح) وهو كاره كما قال ياقوت الحموي.

فكتاب (زجر النابح) يتصل إذاً أوثق اتصال بديوان (لزوم ما لا يلزم)، إذ فيه يوضح المعري كثيراً من أقواله التي ضمّنها لزومياته، ويسفّه رأي الطاعن عليه فيها، مندّداً بفهمه الملتوي حيناً وبتأويله المتجني في معظم الأحيان.

ويشير الدكتور الطرابلسي في مقدمته لهذا الكتاب إلى أنه يبدو من قراءة هذه المقتطفات التي أمكن العثور عليها أن أبا العلاء إنما كان يرد على خصم واحد بعينه لا على خصوم كثر، فهو يوجّه كلامه إلى هذا الخصم بصورة المفرد دائماً، ويطلق عليه تبعاً للمناسبة نعوتاً كثيرة، منها ما قد يحتمل بيسر، ومنها ما يبلغ الغاية في القسوة، فهو أحياناً: الطاعن والمتكلم والمتكبر والمعترض، وهو أحياناً أخرى: المتحامل، والمتقوّل، والمبطل، والمموه، وهو أخيراً: المخترص، والمتسوّق، والمتقرّب بثلب البرآء، والعرّيض الكاذب، والملحد.

ويغلب على الظن كما يرى الطرابلسي أن خصماً لأبي العلاء كتب رسالة يتعقّب فيها أقواله في (لزوم ما لا يلزم)، ممعناً في أذيّته والتأليب عليه، مما قلق له بعض أصدقائه فحملوه على أن يرد عن نفسه سفه هذا الخصم العنيد.

ويقول الطرابلسي في هذا المجال: «ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئاً عن هذا الخصم بالذات، وعن الرسالة التي كتبها في الطعن على اللزوميات وصاحبها، فأبو العلاء لا يشير في هذه المقتطفات التي بين أيدينا من (الزجر) إلى شيء من هذا. كما أننا لا نعرف مطاعن هذا الخصم وآراءه وأقواله إلا مستنتجةً على وجه التقريب من أقوال أبي العلاء نفسه في هذه المقتطفات».

ويبيّن الطرابلسي منهجية أبي العلاء في رده على خصمه، وبعد أن يقدّم باقة من الأمثلة على تلك المنهجية يقول: «في هذه الأمثلة، ولها في الكتاب أشباه كثر، يشير أبو العلاء بوضوح إلى أقوال الطاعن ومآخذه على بعض الأبيات من اللزوميات. ولكن في الكتاب نصوصاً أخرى كثيرة خالية من مثل هذه الإشارات الواضحة. بيدَ أن القارئ يستطيع في معظم الأحيان أن يستنتج رأي الخصم من أقوال أبي العلاء في دفاعه عن نفسه وإبانته المقصود من أبياته التي كان هذا الخصم يسيء فهمها جهلاً أو عن سوء نية».

ويوّضح الطرابلسي أن طريقة المعري في الدفاع عن نفسه وإبعاد الشبهات والمطاعن عن شعره تقوم على توضيح المعنى الذي يقصد إليه في كل بيت جعله الطاعن غرضاً له فأساء فهمه أو حرّفه عن موضعه. وكان جلّ اعتماد المعري في هذا التوضيح على ثقافته الواسعة واطلاعه العميق الشامل على كل ما يمت بصلة إلى العلوم الإسلامية واللغوية.

وكان من الطبيعي في هذه الأحوال أن يكثر المعري من الاستشهاد على صحة رأيه بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال المفسرين والإخباريين، وأن تمده حافظته العجيبة بفيض من الشواهد من أشعار العرب وخطبهم وأمثالهم ينتقي منها ما أحب أو ما ناسب المقام.

ويشير الطرابلسي إلى أن ثمة مسلكاً آخر سلكه أبو العلاء في الدفاع عن نفسه، ذلك أن (لزوم ما لا يلزم) إذا كان لا يخلو حقاً من أبيات غامضة يجوز أن تفتح باباً للأخذ والرد، فإن فيه أبياتاً أخرى كثيرة وصريحة تشهد لقائلها بحسن المعتقد وقوة الإيمان، فلماذا لا يلتفت الخصم إلى هذه الأبيات الواضحة المنفتحة المعنى، ويأبى إلا التمسك بأبيات أخرى يعتورها الغموض، أو يحتاج تفهمها على حقيقتها إلى علم غزير ودراية واسعة بأساليب القول وأحكام المنظوم والمنثور؟

وبعد أن يقدّم الطرابلسي نماذج من دفاع أبي العلاء عن نفسه يقول: «وبعدُ، فمهما تكن أقوال أبي العلاء في (زجر النابح) واللهجة التي اصطبغت بها، فهي أقوال لها شأنها في الدراسات العلائية، إذ يجد فيها الباحثون تقويماً معقولاً للكثير من التأويلات الخاطئة التي تأوّلها عليه خصومه، وتصحيحاً للتهم التي كان يسدّدها إليه الطاعنون، كما يجدون فيها صوراً لعذاب أبي العلاء الوجداني وشقائه الفكري في عصره».[1]

ويتابع كلامه متمنياً في نهاية تقديمه لتلك المقتطفات من (زجر النابح) التي عمل على جمعها وتحقيقها إذ يقول: «وإننا إذ نتقدم اليوم إلى محبي أبي العلاء والدراسات العلائية بهذه المقتطفات الثمينة من أقواله في الدفاع عن نفسه وتوضيح آرائه في ديوانه الخالد (لزوم ما لا يلزم)، لنتمنى أن تكشف الأيام في ساعة من ساعات نعماها عن كتاب (الزجر) بتمامه فتكتمل بذلك الفائدة».[2]

ويشير الطرابلسي إلى القواعد التي اتبعها في نشر مخطوطة «المقتطفات من

(١) جمع وتحقيق الدكتور أمجد الطرابلسي- أبو العلاء المعري «زجر النابح: مقتطفات»- مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م ص٢٥.

(٢) المرجع السابق ص٢٦.

زجر النابح» وهي المخطوطة المحفوظة في مكتبة المتحف البريطاني بمدينة لندن، ثم يقدم نماذج من صفحات المخطوطة المعتمدة في التحقيق.

ثانياً- تحقيق رسالة «الصاهل والشاحج»: قام الطرابلسي بتحقيق رسالة «الصاهل والشاحج» للمعري انطلاقاً من اهتمامه بآثار أبي العلاء ومحبته له، وورد الكلام في هذه الرسالة على لسان فرس وبغل. وليس معنى هذا أن الحوار سيقتصر على الشاحج والصاهل في الكتاب كله، فهناك حيوانات أخرى تتدخل في الحوار مثل الجمل والثعلب وغيرهما، وكان أبو العلاء قد صنف رسالته للأمير عزيز الدولة أبي شجاع والي حلب، إذ يشير ابن العديم إلى أن أسباب تأليف هذه الرسالة تتمثل في أنه رفع إلى عزيز الدولة أن حقاً وجب له على أرض يملكها بعض أقرباء المعري، فأملى أبو العلاء هذه الرسالة يسأل فيها والي حلب الصفح عن هذا الحق.

ويعد كتاب «الصاهل والشاحج» حلقة من سلسلة ما صنف في الأدب العربي نثراً وشعراً على ألسن الحيوانات، وفي الكتاب بحوث لغوية وصرفية ونحوية عديدة ومتشعبة، ويجمع أيضاً كل ما يتصل بالعروض والقافية والضرورات الشعرية، وهو مفعم بالشعر النادر والأساطير والأخبار والأمثال، وللأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي الفضل في تحقيق هذا الأثر القيّم للمعري ودراسته.

ولقد نشر الطرابلسي بحثاً في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق في الجزء الثاني من المجلد التاسع والأربعين الصادر في نيسان عام ١٩٧٤، وجاء البحث في سبع وثلاثين صفحة، وذكر في مستهل بحثه أن المجمع رغب إليه أن يقوم بتحقيق رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء وقدّم إليه صوراً لمخطوطتين من الكتاب، وقد لقيت هذه الرغبة هوى في نفس الطرابلسي نظراً لما يشده من محبة إلى أبي العلاء، ولإقامته في المغرب حيث تضم الخزانة الملكية في الرباط أصول الكتاب..

ويشير إلى أنه على وشك الانتهاء من تحقيق الكتاب، إلا أنه أحبّ أن يقدّم للقارئ فكرة موجزة عن الموضوع. واشتمل البحث المنشور على أحد عشر قسماً، تناول في أولها كلام القدماء على الكتاب فأبان أن القفطي في (الإنباه) وياقوت في (الإرشاد) أقدم من أشار من المؤرخين إلى رسالة الصاهل والشاحج. وكل المؤرخين الذين تعاقبوا من بعد على ترجمة أبي العلاء كالذهبي في (تاريخ الإسلام) والصفدي في (الوافي) لم يزيدوا على ما تقدم شيئاً ما عدا ابن العميد الذي تحدَّث عن الرسالة، وأبا القاسم الكلّاعي من أدباء الأندلس وقد أثبت في كتابه نماذج من رسالة الصاهل والشاحج ونماذج أخرى من معارضته إياها.

وعرض الطرابلسي في القسم الثاني من البحث لأسباب تأليف الكتاب فيورد ما أشار إليه ابن العديم في هذا الصدد، ويعد ذلك سبباً مباشراً للتأليف، ولكنه يشير إلى سبب غير مباشر وهو اعتذار أبي العلاء لعزيز الدولة عن تلبية دعوته للقدوم إلى حلب وهو المصمم على لزوم محبسه في المعرة. وفي رسالة الصاهل والشاحج تأكيد لهذا الاعتذار.

وفي القسم الثالث من البحث يصوّر الطرابلسي شخصية عزيز الدولة كما تجلّت من خلال كتب التاريخ، فيرسم أبعاد شخصيته على أنه واحد من الحكام الكثيرين الذين تعاقبوا بعد سيف الدولة على حكم حلب سواء أكانوا من الحمدانيين ومواليهم أو من موالي الفاطميين أو من المرداميين. ويسرد الباحث سيرة عزيز الدولة نشأة وعملاً وعلاقته مع الروم والفاطميين في مصر واغتياله. وأبان أن عزيز الدولة كان محباً للشعر والأدب ويورد أبياتاً للشاعر المفضل بن سعيد العزيزي في مدحه.

ثم يقف الباحث على صورة عزيز الدولة في القسم الرابع من بحثه وذلك من

خلال الصاهل والشاحج، وقد تبدَّت هذه الصورة أسمى وأدق مما هي عليه عند المؤرخين، فهو ملك عالم أديب عارف بغوامض القريض، ورفع من قدر الشعراء، وله مجلس يجتمع فيه الفقهاء وأهل الكلام والأدب والشعر، وهو ملك يحبه شعبه وحنَّكته التجارب ومحارب شجاع. ويعلل الباحث بهاء هذه الصورة بأن أبا العلاء قد يكون أدرى بأحوال عزيز الدولة بوصفه معاصراً لهذا الأمير، وأكثر اطلاعاً على حقيقة أمره من المؤرخين الذين كتبوا عنه بعد عصره، إلا أنه يستدرك قائلاً: «ولكننا لا نشك مع ذلك أن أبا العلاء قد أضفى على الصورة كثيراً من التهاويل جرياً على طريقته المعروفة في ثنائه على معاصريه كباراً وصغاراً».

وفي القسم الخامس من البحث يبين الباحث الطرابلسي سبب تحلية الكتاب بعنوان «الصاهل والشاحج» في أن الحوار كان بين البغل العاقل الرزين الصابر الساخر وبين الفرس، إلا أن الحوار لم يقتصر على الشاحج والصاهل في الكتاب كله، بل هناك حوارات أخرى تتدخل في الحوار فرادى وجماعات، وهذه الحيوانات هي الضبع والفاختة والجمل والثعلب. وعلى هذا يعتبر الكتاب حلقة في سلسلة ما صنف في الأدب العربي نثراً وشعراً على ألسن الحيوان، والكتاب يختلف عن المصنفات في هذا المجال اختلافاً كلياً من حيث الغرض والتبويب.

ويوضح في القسم السادس أقسام الكتاب فيذكر أن القسم الأول منه يدور فيه بين الشاحج والصاهل، ثم يشارك الجمل في الحديث مشاركة أساسية في حين يبقى تدخل الفاختة والضبع في الحوار تدخلاً جانبياً. والقسم الثاني من الكتاب فالحديث فيه يدور بين الشاحج والثعلب وحدهما، وموضوع الحديث هو جلاء الناس عن أوطانهم بعد أن ترامى إليهم نبأ نهوض عظيم الروم على رأس جيشه وتوجهه نحو بلادهم.

ويعرض الباحث في القسم السابع من بحثه مضمون القسم الأول من الكتاب فيذكر أن الشاحج يشكو شقاءه، ويرجو الصاهل أن يحمل رسالة شعرية منه إلى عزيز الدولة، إلا أن الشاحج لاحظ بعد أن بسط شكواه الطويلة أن الصاهل لا يهش لكلامه، فيذكره صله الرحم وحق الخؤولة، ويأخذ في ندب حظه العاثر الذي لعلّه شنَّع صوته في سمع خاله.

ويرى الطرابلسي أن هذا الفصل من رسالة الصاهل والشاحج، الفصل المعقود على الملاحن، والذي يبلغ وحده ثلث رسالة الصاهل والشاحج، يمكن اعتباره كتاباً من أحفل ما عرفته المكتبة العربية في هذا الباب.

وفي القسم الثامن من البحث يعرض الطرابلسي مضمون القسم الثاني من الكتاب فيشير إلى نبأ نهوض ملك الروم إلى أرض المسلمين، وقد حمل النبأ إلى الشاحج الثعلب، ويسكت الشاحج لدى سماعه النبأ وقد خيّل إليه أن الخبر مكذوب لأن ما بين عزيز الدولة وزعيم الروم من العهود والمواثيق يمنع اعتداء أحدهما على الآخر، حرصاً على مصالحهما كلِيهما.. ثم يفكر فيما تلقاه الرعية من عَنَت كلما وقع خلاف بين الملوك.

ويقص الثعلب على الشاحج أيضاً أنباء جيش الروم، فقد أخفى زعيم الروم خروجه، وهذه أفعال اللصوص لا الملوك.

ويذكر الثعلب بعد ذلك ما تقوله العامة عن علاقات عزيز الدولة بملك الروم.

وبانتهاء حديث الثعلب ينتهي الحوار على ألسن الحيوان في رسالة الصاهل والشاحج.

ويعتذر أبو العلاء عن إسهابه في ختام رسالته «والمسهب كحاطب ليل».

ويعقّب الطرابلسي على مسيرة الحوار في رسالة الصاهل والشاحج قائلاً: «وهي على ما تتضمنه من أخبار طريفة، وتعرضه من مشاهد مثيرة، ليست إلا ذريعة لعرض ما تعوّد أبو العلاء أن يعرضه في رسائله من معارف تتصل بعلوم اللغة العربية، وبجوانب متنوّعة من معارف العصر».

ويبيّن الطرابلسي في القسم التاسع من بحثه أن في الرسالة مسائل كثيرة تتصل بلغات العرب، وبحوثاً لغوية وصرفية ونحوية عديدة ومتشعبة، وهي إلى ذلك كتاب يجمع كل ما يتصل بالعروض والقافية والضرورات الشعرية، وديوان ضخم مفعم بالشعر النادر والأمثال والأخبار والأساطير. ودراسة كل هذه الثروة العلمية والأدبية التي شحن بها أبو العلاء رسالته.

ولعل العناية التي خص بها أبو العلاء علم العروض في رسالته هذه تفوق عنايته بعلوم العربية الأخرى. ومرد ذلك إلى ما سمعه عن اهتمام عزيز الدولة بهذا العلم.

وتناول الطرابلسي في القسم العاشر من بحثه وقع الكتاب لدى عزيز الدولة مشيراً إلى أنه من المؤكد أن عزيز الدولة تقبَّل الكتاب خير قبول، وأن إعجابه بما فيه من علم وأدب غزيرين لم يكن بأقلّ من إعجابه بطريقة أبي العلاء في تصنيفه وإدارته الكلام على ألسنة الحيوانات. يدل على ذلك أنه ما قرأ الكتاب حتى تقدم إلى أبي العلاء بأن يصنف له كتاباً ثانياً على لسان الحيوان يجعله هذه المرة على نمط كليلة ودمنة، أي مجموعة من الحكايات والأمثال.

وفي رسالة جوابية بعث بها أبو العلاء إلى محمد بن سنان المكلف من عزيز الدولة نقل رغبته إلى أبي العلاء يقول أبو العلاء: «فأما كتاب كليلة ودمنة فليس له نسخة عندي، ولا تمكّن به علمي، ولا أذكر أني استكملته سماعاً قطْ. ولما ورد كتابه المعظم سألت من جاءني منه بنسخة رديئة وكلفته أن يقرأها علي، فكنت في ذلك كما

قيل في المثل: عاطٍ بغير أنواط (يضرب هذا المثل لمن يتناول ما لا مطمع فيه، أو لمن ينتحل علماً لا يقوم به، ولا يظنَنَّ السلطان خلّد الله ملكه أن أمري يقاس على ما اتفق في رسالة الصاهل والشاحج، فإن إقباله ألقاها بخلدي، ونفثها في فمي، ونطق بها على لساني. ولابد لي من تكلفي استماع الأوامر، لأن طاعة السلطان – أعز الله نصره– فرض على كل أحد».

ويعقب الطرابلسي على قول أبي العلاء قائلاً: «نفهم من هذه الأسطر أن أبا العلاء عزم على الامتثال لرغبة السلطان. وفعلاً شرع المعري في إملاء كتاب سماه «القائف»، وأتم منه أربعة أجزاء في ستين كراسة، أي ما يعادل كتاب «الصاهل والشاحج» مرة ونصف المرة، وحجم رسالة الغفران ثلاث مرات. وعندما جاءه نبأ مقتل عزيز الدولة قطع تأليف الكتاب لموت من أمر بعمله.

وفي القسم الحادي عشر من بحثه يذكر تاريخ تأليف كتاب الصاهل والشاحج فيشير إلى أن الكتاب ألف بين ٤٠٧ و٤١٣هـ وهي الفترة التي حكم فيها عزيز الدولة، وإذا كان عزيز الدولة قتل في ربيع الآخر من سنة ٤١٣هـ فإن هذه الفترة الفاصلة بين انتهاء أبي العلاء من إملاء الصاهل والشاحج ومقتل عزيز الدولة هي أقل ما يتطلبه وصول الكتاب إلى عزيز الدولة وقراءته إياه، ثم تكليف أبي العلاء أن يصنّف له كتاباً ثانياً في معنى كليلة ودمنة، وبحث أبي العلاء عن نسخة من هذا الكتاب ليقرأها ويستلهمها نسقاً يمضي عليه في تصنيف كتابه الجديد، ثم إملاؤه أربعة أجزاء كاملة من «القائف»، ثم توقفه عن الإملاء وتركه الكتاب لحناً لم يتم بعد أن جاءه النبأ باغتيال سلطان حلب. وهكذا تكون سنة ٤١١هـ سنة الصاهل والشاحج في حياة أبي العلاء، وكان شيخ المعرة آنذاك في الثامنة والأربعين من عمره.

ويقول الطرابلسي في نهاية عرضه «وإنما الغرض من نشر هذا الكلام الآن تبشير محبي أبي العلاء بأن الكتاب في طريقه إلى الظهور، وأنه بلا ريب من قمم التصانيف العلائية، فهو إلى أنه يؤكد ويوضح كثيراً من الجوانب المعروفة من حياة أبي العلاء الفكرية، ويكشف عن جوانب جديدة ما تزال مجهولة من هذه الحياة الخصبة».

وعن عرضه لمحتويات الكتاب يقول: «هذا عرض يقتصر على ما لابد منه للتعريف بالكتاب وملابسات تأليفه، ولا يمكن في أي حال اعتبار عرضه تلخيصاً لكتاب ضخم يستعصي على كل تلخيص بطبيعته، ذلك لأن المؤلف بثَّ في كل سطر من سطوره فكرة تأملية، أو بسمة فلسفية، أو نكتة علمية، أو شاردة أدبية من الشوارد الغزيرة التي تعمر حافظته العجيبة».

ولقد كان حب الطرابلسي لأبي العلاء نعمة كبيرة في مسار أدبنا العربي، إذ إن هذه المحبة ولّدت أثرين أدبيين لأبي العلاء وأظهرتهما إلى النور بعد أن قام الدكتور أمجد الطرابلسي رحمه الله بتحقيقهما، ولاشك في أن المحبة تولّد الإبداع !

الفصل الخامس

الطرابلسي شاعراً

الفصل الخامس

الطرابلسي شاعراً

تبدّت موهبة الطرابلسي الشعرية منذ فتوته، وهو ما يزال طالباً في المرحلة الثانوية، إذ إنه نشر قصيدته الأولى في مجلة الرسالة في عددها الصادر بتاريخ ١٦/ ٤/ ١٩٣٤م، وقد تحدَّث في هذه القصيدة عن أمه التي توفيت وكان عمره آنذاك سنتين، فوصف ما يضطرب في نفسه من لواعج الأسى والحسرة بأجمل أسلوب، وكأن شعره لم يعرف مرحلة القرزمة، على حدّ تعبير الدكتور شاكر الفحام فجاء مكتملاً سائغاً عبّر عما عانى ويعاني من فقد أمه التي رزئ بها وهو بعد في المهد.

وفي السنة نفسها أي سنة ١٩٣٤ نشرت مجلة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات قصائد للطرابلسي منها (السائلة)، و(عاصفة في قلب)، و(عرس في مأتم) و(في الروض المحزون)، ويغلب على هذه القصائد الشكوى من الحياة ومفاجآتها.

لقد جمع الطرابلسي قصائده كافة في فتوته وشبابه وكهولته، أي في جميع مراحل حياته، في ديوان شعري عنوانه «كان شاعراً»، وصدر هذا الديوان في الرباط بالمملكة المغربية في طبعته الأولى عام ١٩٩٣، وقد أهدى الطرابلسي ديوانه إلى رفيقة دربه منذ خمسين عاماً، أم أولاده وجدّة أحفاده زوجته السيدة مونيك الحبيبة إلى قلبه.

ويبيّن الطرابلسي في مقدمة كتابه «كان شاعراً» قصة عنوانه، إذ يقول: «أما العنوان فقصته كالتالي: كنت في الخمسينيات أستاذاً في كلية الآداب بجامعة دمشق، وأقام الطلبة معرضاً لرسومهم الكاريكاتورية، وحين زرت المعرض وجدت رسماً لي

كتب تحته: «كان شاعراً». ومن تلك اللحظة نويت أن أجعل من هاتين الكلمتين عنواناً لأول مجموع شعري أنشره. وهكذا كان ولكن بعد أربعين عاماً !

وإذا كان الطرابلسي قد فسّر العنوان فإن له كلاماً آخر إلى جانب تفسيره لعنوان مجموعته الشعرية إذ يقول: «وأما الكلام الآخر وهو جد مقتضب فلأقول لأخي القارئ: «إنني لا أضع بين يديه ديواناً بل مجموعاً شعرياً قد يتلوه سواه. وإخراج الشعر في مجموعات محدودة الحجم أقرب إلى ذوق العصر، وأدنى إلى تحمل القارئ. وينطوي هذا المجموع على أربعين نصاً بين طويل وقصير، حرصت في اختيارها أن يكون فيها القديم والأقل قدماً، وأن تمثل المضامين التي أدرت عليها، والقوالب التي صببتُ فيها معظم شعري.

ولقد سمحت لنفسي أن أعيد النظر في صياغة بعض ما سبق نشره. ومن نافلة القول أن الصيغة الجديدة في هذه الحال هي وحدها التي أتبنى».

ونحاول فيما يلي إلقاء نظرة على مضمون كتابه «كان شاعراً»، ثم نقف على تبيان بعض من سمات هذا الشعر.

أولاً- مضمون «كان شاعراً»

جاءت مجموعة «كان شاعراً» للطرابلسي في مئتين وست صفحات، واشتملت على مدخل حمل عنوان «حنين» يقول فيه:

قلبُك الراكد كادت تنبتُ الأعشاب فيهْ
وعلى أحنائك التفَّتْ خيوط العنكبوتْ
وقضى في صدرك الحُلم الذي كان يتيهْ
وبريقُ العجب في عينيك قد كاد يموتْ

*** * ***

عُـدْ إلى جـوّك يـا حـيرانُ إن شـئت البقـاءْ
واضرِبِ الـريح بجنحيـك وطِـرْ عـبر الأَلَـقْ
دعْ عـلى الأرض خمـولَ الأرض فـالفنُّ سـماءْ
في مـداها تسـقط الحجـبُ ويُسـتجلى الشـفقْ

اشتملت المجموعة على عدة أقسام، فثمة قصائد في الروحانيات، والأوابد، والقوميّات، والتأملات، والعبرات، والذاتيات، وثمة خاتمة.

١- **قسم الروحانيات**

أما الروحانيات فجاءت في ثلاث قصائد: عنوان الأولى منها «همزية الفداء» ونظمها عام ١٩٣٧ وقد استقاها من سورة الصافّات في القرآن الكريم حيث الحديث عن سيدنا إبراهيم وولده، يقول الله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [سورة الصافات: ١٠٢-١٠٧]

جاءت القصيدة الهمزية في ستة وثمانين بيتاً وهي من الشعر القصصي، ومطلعها:

شـعَّ مـن بسـمةِ الصباحِ الضـياءُ　　　وأفاقـتْ مـن حُلْمِهـا البطحـاءُ

ويتحدث فيها الشاعر عن الصحراء والقفار التي قطعها الخليل وإلى جانبه ابنه، وعن الحالة النفسية لكل منهما، والحوار الذي دار بينهما، فها هو ذا الابن يسأل أباه بعد أن أعياه السير في القفار:

«أبتـي ! طـال سـيرُنا وعـراني نصَـبٌ منـه مُـرمِضٌ وعنـاءُ
أيـن نغـدو؟ لعلّنـا قـد ضَـلِلْنا نهجنـا، أيـن قصـدُنا واللقـاءُ؟
أبتـاه! كلَّـت يـداي ورجـلا ي، وأدمـت أقـداميَ الحصـباءُ
مِـلْ إلى الظـلّ نسـتحمُّ قلـيلاً فلقـد هـدَّ قـوتي الإعيـاءُ»
فأجـاب الأب الوجيـع يواسـيه وقـد شـفّه الأسـى والشَّـقاءُ
باسـماً يُمسـك المـدامع أن تجـريَ وأن تسـتفزه البُرَحـاءُ:
«يـا صغيري الحبيب! كيف خبا عزمك؟ أين الثباتُ؟ أين المضاءُ؟
غايـة السـير ذروة التـلّ هـذا وهنـاك الجَـمامُ والإرسـاءُ
فوقـه يـا بنـيَّ تُؤسـى الجراحـاتُ وتُنسـى الآلامُ والأعبـاءُ»

ويستمر السير، ويصف الشاعر تلك الرحلة القاسية، ومشاعر الطفل وبكاءه ومشاعر أبيه وبكاءه أيضاً في خفوت، ثم يصف حالة هذا الأب الحزين بعد أن وصل إلى الموقع المنشود، وابنه من ورائه مثقل الخطو ليلتفت الأب إلى طفله قائلاً:

«يا طفلي الحبيب ويـا مـن هـو سلوايَ في الدُّنا والرجـاء !
يا صغيري ! ماذا أقولُ؟ وهل للنطق في زحمة الدموع عَناءُ؟
كلـما هـمَّ بـالكلام لسـاني أيبسـته المُصـيبةُ الـدَّهياءُ
جـاءني الـوحيُ في المنـام بـأمر لا منـاصٌ منـه ولا إرجـاءُ
قال لي: «اذبح غداً وحيدك» يا لَلْهولِ تَدْمى لـذكره الأحناءُ
يـا بُنـيَّ ! انظـر مـا تـراه ولا تأخـذك مني مهابـةٌ أو حيـاء»
فاقشعرَّ الفتى كما ارتعشت في عصـفة الـريح روضـةٌ غنّـاءُ

ودنا من أبيه هَوناً يواسيه، وأنّى السلوى؟ وأنّى العزاءُ؟

«أبتاه افعل ما أمرت ولا تأخذك بي رحمةٌ ولا بأساءُ

لا تَهنْ يا أبي! هلمَّ فأضجعنيَ من قبل أن يلوح المساءُ

ثم عصّبْ عينيَّ رفقاً بمنديلٍ فللموت سحنةٌ نكراءُ

ثم يطلب الابن إلى أبيه أن يشحذ الخنجر، وأن يدع دمه للرمال ففيه لحرّها إطفاء، ويرجو اباه أن ينزع ثوبه عنه وقد خضبته الدماء ويعطيه لأمه فبه سلوة لها وعزاء، وقد وجد الابن الموت عذباً في سبيل الله:

عَذُب الموتُ في سبيلك يا ربُّ وساغَ البِلى وطاب الفناءُ!».

وبعد أن همّ الأب بإنفاذ عملية الذبح، وإذا السماءُ تأتلق الأنوار فيها وتسطع الأضواء:

ملكٌ في الفضاء يحمل ذِبحاً يتعالى في السحب منه الثُّغاء

هبط الأرض مثلما تهبطُ الروض اشتياقاً حمامة بيضاءُ

فديةٌ للصبيّ أرسلها الرحمانُ تشدو بحملها البُشراءُ

وتجيء الأوامر إلى الأب ليكفّ عن عمله في ذبح الطفل:

يا خليلَ الرحمن! هيّا ارفع الطفل فقد ردّه إليك القضاءُ

وانحر الذبح يا نبيُّ فداءً عظُم المفتدى وجلَّ الفداء

رحمةُ الله كم تداركت الخلقَ وقد أعوزتهمُ الرُّحماءُ!

أما الهمزية الثانية في مجموعة الروحانيات فهي همزية الإسراء، وقد نظمها الطرابلسي عام ١٩٣٨، وقد استقاها من سورة الإسراء في القرآن الكريم:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء: ١]

ومطلع هذه القصيدة:

رفـدت مـلء عينِها البيـداءُ واحتوتها في سرّها الظلماءُ

وتقع القصيدة في سبعة وستين بيتاً، وقد جاء فيها:

مَعـرجَ المصطفى إليك التحيّا تُ روتها دموعنا والدماء

بوركت أرضك الندية يا قدسُ ووشّت رياضكِ النعماءُ

أنت أم الدنيا ومهدُ النبوّات ومنكِ استضاءتِ الأَنباءُ

فيكِ موسى الكليمُ ألقى عصاه بعد أن طوّحت به الأرزاء

والمسيحُ العظيمُ فيكِ تجلّى يملأ الأرض من هُداهُ السّناءُ

ثم يعرض في القصيدة سمات السيّد المسيح وعدل الفاروق وحلم صلاح الدين الأيوبي وعدله ويدعو في نهاية قصيدته للقدس قائلاً في صيحة تفاؤلية:

دمتِ قدس العلا ودام لك المجدُ وذَلّتْ في غابِك الدُّخلاءُ

سيشع السَّنا ويصطفق النصرُ لواءً، وتنجلي الظلماءُ

ونظم الشاعر قصيدة «مع أذان الفجر» عام ١٩٣٥، وهي القصيدة الثالثة التي وردت في قسم الروحانيات من ديوانه، وفي مطلعها يقول:

في هدأة الكون وصمت الدجى أرسل كالفجر شعاع اللحون

يدعو إلى الرحمة صرعى الكرى والناس في أحلامه مُغرقون

وقد تنوعت القوافي في هذه القصيدة حيث جاءت قافية الهاء والعين والهمزة واللام والكاف والدال إضافة إلى النون.

٢- قسم الأوابد

أما قسم الأوابد في الديوان فقد اشتمل على قصيدتين تاريخ كل منهما عام ١٩٣٧ الأولى عنوانها هياكل بعلبك؛ وتجدر الإشارة إلى أن آثار بعلبك مشهورة، وهي آثار رومانية شيّدت في القرنين الميلاديين الأول والثاني وأشهرها هياكل لثلاثة من آلهة الرومان: جوبتر كبير الآلهة، وباخوس إله الكرمة والخمر، وفينوس إلهة الحب.

وجاءت قصيدة هياكل بعلبك في ستة وثلاثين بيتاً، ومطلعها:

أطلال! ما البنيان يا أطلال؟ فَنِيَتْ على ضحكاتك الأجيالُ

ثم يقول:

هزئت رسومُكِ بالزمان وصرفه ما تفعل النكباتُ والأهوالُ؟
تفنى القرونُ قديمُها وجديدُها وعلى حطامك بسمة وجمالُ

ويصف في هذه القصيدة عمد بعلبك وجوبيتر وعبادة البشر له إذ يقول:

عبدوك فاستعبدتهم وتساقطت في ساحك العبدان والأقبالُ
تلك العبوديات من آثارها هذي الصروح كأنها أجبالُ

وينتقل بعدها إلى وصف صرح باخوس ومعبد فينوس، ويخاطب أمة الرومان قائلاً:

يا أمة الرومان! مازال الورى يسبيه كوبٌ مترعٌ ودلال
في كل قلب للمحاسن معبدٌ تأوي الجراح إليه والآمال

وينهي قصيدته بعد ندائه بعلبك واصفاً إياها بأنها بنت الخلود ليتساءل أخيراً:

مـاذا عرفـتِ مـن الحيـاة؟ وإنـما كنـــه الحيـــاة تعاقـــبٌ وزوال

ويالها صرخة من قلب مفجوع في نهاية قصيدته:

ويـــلٌ لمفجـــوع يـــرى أحبابـــه يترحَّلـــون ومالـــه ترحـــالُ

وجاءت القصيدة الثانية من قسم الأوابد ذات العنوان «أرزة لامارتين» في ثلاثة وأربعين بيتاً، و«أرزة لامارتين» هي إحدى شجرات غابة الأرز في قمة جبل لبنان، وهي باسم الشاعر الفرنسي «لامارتين»، وقد نقش على جذعها اسم الشاعر واسم ابنته «جوليا»، ومعروف أن لامارتين زار لبنان وفلسطين خلال عامي ١٨٣٢ - ١٨٣٣، وأن ابنته توفيت في بيروت خلال هذه الزيارة.

وتقول الأسطورة إن النقش كان بيد الشاعر وابنته، ولكن التاريخ يشك في ذلك، بل يؤكد بعض المؤرخين أن الذي نقش الاسمين أحد أصدقاء الشاعر حين علم بأمر الزيارة، فأراد أن يجعل من هذا النقش مفاجأة سارة للزائرين.

ويقول الطرابلسي: أسطورة أو غير أسطورة، أرزة لامارتين مازالت قائمة، وقد تكون الأساطير أقدر على البقاء من الحقائق أحياناً. وفي قصيدة «أرزة لامارتين» وصف لأرز لبنان:

يـــا أرز لبنـــان ! يـــا مُصـــلّى مـــا فـــات مـــن غـــابر العهـــود!
في دوحـــك السَّـــمِق المعـــلَّى أرائـــكُ الأعصـــر الهجـــود

وينادي الطرابلسي الشاعر لامارتين وابنته جوليا فيقول:

إيـــه لمـــرتينُ ! يـــا صـــديقي يـــا شـــاعر المأمـــل الشـــهيد

يــا أنــة النــاي في الليــالي ونفحـــةَ الآس والـــورود

يـا شـاعري مـتّ غـيرَ نقـشٍ عــزَّ عــلى المــوت واللحــودِ

خلّفتَـــه للحجـــيج دنيـــا مـــن التصـــاوير والقصـــيدِ

يبسِـــمُ للزائـــرين أُنســـاً وينشـــرُ العطـــر للوفـــود

و(جوليـــا) غِـــرَّةٌ لعـــوبٌ خفَّاقـــةُ الحُلـــم والنهـــود

خطَّتْ حروف اسمها غروراً تحت اسـمك الخالـد المجيـد

آملـــة أن تعـــود يومـــاً فتقـــرأ الخـــطَّ مـــن جديـــدِ

خطّـت وخـطَّ القضـاءُ سـطراً في لوحــه الغــامض الرَّصــودِ

عاجلهــا والصِّــبا غــريضٌ: مــا أقــرب اللحــد للمُهــود!

٣- قسم القوميات

ويضم قسم (القوميات) في ديوان الشاعر أربع قصائد، الأولى عنوانها «فوزي القاوقجي»، وألقاها في حفل أقامه الطلاب العرب في باريس عام ١٩٤٢ تكريماً للقائد العربي الثائر فوزي القاوقجي، وهو من قادة الثورة السورية ضدّ الفرنسيين عام ١٩٢٥، والثورة الفلسطينية ضدّ الإنجليز عام ١٩٣٦، وكانت العاصمة الفرنسية آنئذ أي عام ١٩٤٢ في قبضة الاحتلال الألماني، وقد جاءت القصيدة في واحد وخمسين بيتاً، ومطلعها:

فــوزي تبسَّــم لي بعينيــك الغــدُ وانجاب عن بصري القناعُ الأسودُ

ثم يتحدث في القصيدة عن بطولة هذا القائد إبان الثورة السورية في الشام والجبل الأشم والمحافظات السورية، ويبيّن كيف أن الثوار السوريين هبّوا وراء القاوقجي للنضال:

هبــوا وراءَك للنضــال مواكبــاً		يطغـى بهـم أَنَـفٌ ويحنـق سـؤددُ

ثم يصف هؤلاء الثوار في أثناء احتدام المعركة فيقول:

النــار مــلء صــدورهم لَهّابــةٌ		والنــورُ مــلء عيــونهم متوقّــدُ
تُنشـيهِمُ الرايـات تخفِـق فـوقهم		والخيـلُ تصـهَلُ والسـيوف تُجـرَّدُ
حتى إذا احتـدم الصـدام وحوَّمـت		سـيرُ الملاحـم في السـماء تزغـردُ
ودوى الرصاص، وأقحموا نحو العدى		خـيلاً تحمحـمُ في اللقـاء وتزبـدُ
ثملـوا بكاسـات الـردى فتصايحوا		في حومـة المـوت الـزؤام وعربـدوا:
«باريسُ مربط خيلنا»! بـل هاكهـا		في الأسـر عاريـةً تُسـاط وتجلـدُ

ويعرّج الشاعر على الاحتلال الألماني لباريس، فحطم هذا الاحتلال صلف الفرنسيين إذ يقول:

دار الزمــانُ بهــا فحطَّــم كبرَهــا		فــالعزُّ مقــوٍ والفخــارُ مبــدَّدُ

ويبين الشاعر أنه غير شامت بما حلّ بباريس:

أرثــي لبــاريسٍ ولســتُ بشــامتٍ		خُلُـقُ الشـماتة عـن وفـائي أبعـدُ
أرثــي لهــا، ولقــد رثيــتُ لجلّــق		مـن قبـلُ إذ تُرمـى ولا مـن يُنجـدُ

ثم يرجع إلى الإشادة ببطولة القاوقجي في أثناء قيادته للثوار إذ يقول:

تلك العصائبُ أنت كنت تقودهـا		للنصـر أو للمـوت، جـلَّ المقصِـدُ
أبطــالُ ملحمــةٍ مجيــدٍ ذكرُهــا		يفنـى المـدى، وحـديثها لا ينفَـدُ

وينتقل الشاعر إلى وصف بطولة القاوقجي إبان الثورة الفلسطينية إذ يقول:

فــــوزي أتـــذكر أمـــة عربيـــة في القـدس باتـت تشـترى وتُهَـوَّدُ
لمـا دعـا الـداعي فلبَّـى صـوته للثـورة الحمـراء جـيشٌ يُحشـد
فلقيـت أبطـالاً لَقُـوا بـك قائـداً ملء العيون، فحكَّموك وسوَّدوا
فبعثـت في وجـه العـدو كتائبـاً حُشُـداً تُشـتِّتُ جمعـه وتُبـدّدُ

ويسترسل الشاعر في تبيان مزايا القاوقجي في هذه القصيدة التي تجلّت فيها النزعة القومية في نفس الطرابلسي عندما يقول:

أدنـــى منانـــا دولـــة عربيَّـــةٌ شـمَّاءُ تـرأبُ صـدعنا وتوحِّـدُ
يـرضى بهـا شـهداؤنا ودماؤنـا وفخارُنـا الأسـمى الأعـز الأتلـدُ

والقصيدة الثانية في قسم القوميات عنوانها (بورسعيد) وقد نظمها الشاعر عام ١٩٥٦، وهي ليست من الشعر العمودي، بل من الشعر الحديث، وفيها يتحدث عن قتال الشوارع في بورسعيد ولهيب المعامع وانطلاق المدافع وأزيز البنادق وامتلاء الخنادق من شهيد على شهيد في بورسعيد، ثم يصف الأعمال الإجرامية التي قام بها العدوان الثلاثي على بورسعيد تدميراً وتقتيلاً وذبحاً، كما يصف طيّارات المعتدين قائلاً:

تلك طيَّاراتُهم في الجوّ أسراباً تحومْ
تتنزّى بالحقودْ
تُمطر الأَضغانَ والغِلَّ وترمي بالرُّجوم
وتُزجّي بالجنود
مزّقيهم قبل الوصول

واسحقي مِنهُمُ الفلول

وانثريهم فوق التلول

إنهم سبة الوجود

يا بورسعيد .....

ويقسم الشاعر على أن الخلود لبورسعيد وأن المعتدين إلى الإبادة لا محالة إذ يقول:

قسماً بالجرح، بالأحرار منا والحرائرْ !

لن يعودوا ...لن يعودوا

قسماً بالدم دفّاقاً على ترب الجزائر !

لن يعودوا ... أو يبيدوا....

ضمّدي الجرح في الصدورْ

وانثري الزهر في القبور

واحجبي الجوَّ بالنسورْ

واملئي السفح بالجنودْ

يا بورسعيدْ

لك الخلود !

والقصيدة الثالثة في قسم القوميات عنوانها «عَلَمان يُطويان وعلم ينشر»، وقد ألقاها الشاعر في مهرجان جامعة دمشق في العشرين من شهر آذار عام ثمانية وخمسين وتسعمئة وألف تمجيداًلقيام الجمهورية العربية المتحدة وتحقيق الوحدة بين سورية ومصر، ويقصد الشاعر بالعلمين اللذين يطويان علمي سورية ومصر، والعلم الذي ينشر هو علم الوحدة فيقول:

عَلَمــي مصــر وســورية وداعــاً وتجلّــهْ
إننــي أطــويكما طــيَّ جراحــاتي الغــوالي
وبنفســي نشــوة العــزّ وتحنــانُ المُوَلَّــهْ
إننــي أطــويكُما في ذكريــاتي وخيــالي
بعــد أن أضـفى علينـا علـم الوحـدة ظِلَّـهْ

ويتغنى الشاعر بعلم الوحدة حلم شبابه ورغابه فيقول:

عَلَـمَ الوحـدة يـا مجـديَ في يـومي الجديـدِ
عَلَـمَ الوحـدة يـا مجد غـدي يـا فجـر عيـدي
علـم الوحــدة يــا حلــم رغــابي وشــبابي
إننــي أركــزك اليــوم عــلى شــمّ هضــابي

ويعدد الأماكن والمواقع التي يرفع عليها علم الوحدة قائلاً:

إننــي أرفعــك اليــوم عــلى أرض جــدودي
في ذرا (الأهــرام)، في (تــدمرَ)، في دار الوليــدِ
في روابي (ميسـلون)، في شـواطي (بورسـعيد)
في ذرا التــاريخ، في قلبــي وفي قلــب وليــدي

ويذكّر الشاعر بأمجاد العروبة من قبلُ في حطِّين والقادسيَّة واليرموك فيقول:

إننــي أرفعــك اليــوم عــلى أرض جــدودي
ذاكــراً أمجــادَك الغُــرَّ الوِضــاءَ العربيَّــة
ذاكـراً (حطِّين) و(المرج) ويـوم (القادسـيَّة)

* * *

إنني أرفعك اليوم على أرض جدودي
وأنا ألمح (ذاقارٍ) على صفحة بَنْدِكْ
وجنودَ (السيف) في اليرموك في خطرة جُندِكْ

ولا ينسى الشاعر في هذه القصيدة أن يدعو بغداد إلى الانضمام إلى هذه الوحدة المباركة، وأن تنبذ حلف بغداد صنع المستعمرين، لأن العرب أوفى إذ يقول:

قامت الدولة يا بغداد وانجابت حدودُ
فاسلكي الدرب إلى الأهل وإن غيظ الحسود
دربُنا ما فيه أحلاف ولا فيه قيود

* * *

اسمك الأعطر يا بغداد ما أندى وأصفى !
كيف سمَّى باسمِك الأشرار للتدليس (حلفا)؟
فانبذي الحلف لغدّاريه، إن العرب أوفى

ويُبدي الشاعر في هذه القصيدة أيضاً شوقه إلى تحقيق الوحدة الكبرى وتحرير القدس وتحرير الجزائر فلنستمع إليه يقول:

نحن في شوق لأيامٍ وأعيادٍ جليلهْ
ينقع المجد بها في دَرَكِ السؤل غَليله
يوم تزدان روابي القدس في عرس (جميلهْ)

* * *

يوم تخضلُّ بدمع الفرحة الكبرى المحاجر

وتهزُّ الكونَ صيحاتُ الفِدا ملءَ الحناجر:

يـا لثـارات فلسـطينَ وثـارات الجزائـر!

ويرى الشاعر في نهاية قصيدته أنه إذ يدعو إلى طيِّ علمي سورية ومصر ونشر علم الوحدة مكانهما فإنما يودّع ويطوي هذين العلمين طيَّ خشوع وجلال طابعاً قُبلة عليهما، ورافعاً راية الجمهورية العربية المتحدة، راية الوحدة بين سورية ومصر على أنها قِبلة العرب، فها هو ذا يقول:

عَلمـي مصـر وسـورية وداعـاً وتجلّـهْ

إننـي أطـويكما طـيَّ صـباباتي الخـوالي

وأنـا أطبـع في مـدّكما الخالـدِ قُبلَـهْ

إننـي أطـويكما طـيَّ خشـوع وجـلالِ

رافعـاً رايـة جمهـوريتي للعـرب قِبلَـهْ

والقصيدة الأخيرة في قسم القوميات عنوانها «رصاص فتح يلعلع من جديد بعد يونيو ١٩٦٧) وهي من الشعر الحديث، وقد بثّ فيها الشاعر آلامه مما حدث لأمته في حرب الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ إذ يقول مخاطباً ابنته:

طالما طأطأت رأسي..

طالما حاولت أن أستر عن عينيك بؤسي..

كلما حاولتُ تمويه جراحي

خلف سترٍ من مزاحِ

هزئت بي خيبتي ..

كلما حاولت تمزيق الحقيقهْ

سخرت بي ذلتي

فتشاغلتُ دقيقهْ ..

ذِلَّةُ اللَّطمةِ من خامس يونيو

قصمت ظهري وغشّت بصري.

ويذكر الشاعر أن ما قامت به منظمة فتح بعد الخامس من حزيران (يونيو) عندما واجهت المحتلين الإسرائيليين بالعمل الفدائي وبالعمل المقاوم، قد أعاد إليه الأمل وعاد إنساناً سوياً رافع الرأس إذ يقول:

عدت إنساناً سويّا

عدتُ بعد الوأد حيًّا

فتعالَي يا ابنتي..

وضعي مُحملَ كفيك على جبهتي

واطلبي مني أن أرفع رأسي

ويبيّن الشاعر أن درب المقاومة هو الدرب الموصل إلى النصر والتحرير، ولا درب سواه فيقول:

انتهى الماضي انتهى يا ابنتي

إنني اليوم أُناغي نشوتي

إنني اليوم أغنّي أمتي

إنه دربُ الجزائرْ

إنه الدربُ ولا دربَ سواه

وقد بدأ الشاعر مقطوعته قائلاً:

انتهى الماضي انتهى وانجبرت كَسْرَتي

٤- **قسم تأملات**

ويضم قسم تأملات في الديوان عشر قصائد كان الشاعر قد نظمها في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، وهذه القصائد هي:

أ- **الأسطورة: خلود الذكر نظمها عام ١٩٣٥**: وقد تعددت فيها القوافي بين اللام والدال والهمزة والراء والياء..الخ. وفيها يدور الحوار بين الشاعر وعصفورة.

وتعقّب على رأيه بأن الخلود الذي يرومه ما هو إلا أسطورة، وتدعوه إلى الكفّ عن البكاء والنواح، وأن نشدانه البقاء مستحيل في عالم كنهه الفناء.

وتقدّم شواهد على رؤيتها، ومن هذه الشواهد الجدول الصغير الذي يحلم بالخلد والبقاء وإنما همه المسير، والزهرة التي يخبو عطرها الزكي، وأغانيها في الغصون التي لم يحفظ الروض من لحونها شيئا...

ب- **بين صحراوين نظمها عام ١٩٣٥**: ويقصد بالصحراوين صحراء ما بين ضلوعه، والصحراء من حوله.

ويتحرى الشاعر في صحراويه لمح سراب وهو يرقب ظلّه الذي بدا صامتاً وسط اليباب.

ويصل الشاعر أخيراً إلى أن الينبوع الذي يبحث عنه ليس في الصحراء فليبحث عنه في أعماق نفسه.

وتتبدى من خلال هذه المقطوعة سحابة القلق التي تخيّم على أجواء الشاعر، والمعاناة المرَّة التي يكابدها، وأن الحل الوحيد لما يكابده إنما يتجلى في العودة إلى أعماق نفسه لا في البيئة المقفرة من حوله كالصحراء.

ج- **أحب ولا أحب، نظمها عام ١٩٣٨**: جاءت القصيدة في أربعة مقاطع، وفي كل مقطع حب واحتقار في الوقت نفسه، حب في ثلاثة أبيات واحتقار في بيتين،

ففي المقطع الأول يحب الجبال الشامخات التي تصول عواتياً وتضحك من عصف الرياح وتحتضن السيل وتلهو عن الزلزال، ويحتقر الكثبان ترعشها الصَّبا ويفزعها الإعصار وتحملها الرياح أنّى توجهت.

وفي المقطع الثاني يحب شموخ الروح في ربواته وإباءه على حرب الأعاصير، ولكنه يحتقر الأعشاب تحني رؤوسها وتدور مع الإعصار أنّى يديرها ويلطمها هوناً فترضى وتسكت.

وفي المقطع الثالث يحب الفتى الذي يجوب الصحراء دون شكوى ولا تبرّم حتى لو لذعته الشمس فيمشي على الرمضاء متئد الخطا، جلداً على نيران الرّمال، ويحتقر الرجل الدنيء الذي يخفض رأسه وهو شاك يدمدم، وتساوره الأشباح في القفر رهبة فيرعش منه القلب والطرف والفم.

وفي المقطع الرابع والأخير من قصيدته يحب الفتى الذي يهزأ بالأغلال التي تثقل عنقه، ويسخر من جلاّديه وبطشهم، ويحتقر الأحرار الذين يحنون رؤوسهم وليس عليهم سيّد أو مسيطر، فلتسمع إليه يقول في هذا المقطع:

أحبُّ الفتى، والغُلُّ يُثقل عُنْقَهُ	**«وسيف المنايا بين عينيه مُشْهَرُ»**
يصيح بأعلى صوته يُنكر الأذى	**ويضحك من بطش الطغاة ويسخرُ**
ويشمخ بالأغلال رأساً وإن غدتْ	**تحُزُّ ومن أنيابها الدم يقطُرُ**
وأحتقر الأحرار يحنون هامَهُمْ	**وليس عليهم سيّدٌ أو مسيطرُ**
إذا كان قلبُ المرء عبداً ورأيُه	**فقل لي- هُديت الخير! - ماذا تحرّر؟**

وفي الأمور التي يحبها الشاعر دلالة على سموِّ نفسه وإبائها وعزتها وتوجهها نحو الأجمل والأكمل والأبهى في هذه الحياة.

د- **زهرة الشوق: نظمها عام ١٩٣٩**: وهي وحي زهرة طوى عليها شقيق الشاعر إحدى رسائله إليه في باريس ليشعره بربيع دمشق.

وفي هذه القصيدة يخاطب الشاعر الزهرة ويذكر أن تلك الزهرة أذكرته الأمس والأهل والصحب وأيقظت الشعر في أعماق نفسه بعد طول السبات ففجرته جدولاً ناغماً، ثم ينادي الشاعر تلك الزهرة إذ يقول:

أيا زهرة الشوق لا صوَّحت — مغاني حماي وأدوارُهُ!
لقيتُ بك الأهل بعد الفراق — فبُثَّ الهُيامُ وأسرارُه
فذا منزلي في حواشي الحِمى — تلوحُ لعينيَّ أشجارُهُ

هـ- **أصوات وأضواء بحثاً عن النور عام ١٩٣٩**: مقطوعة من الشعر الحديث يتحدث في مقطعها الأول عن الظلام وعمى السبيل وضياع الزمام وضلال الطريق وخوف الرحيل، وهو في هذا الجو يسأل عن الصباح الذي يواسي الجراح ويحيي الأمل.

و- **إعصار عام ١٩٤٠**: ويقصد الشاعر بالإعصار هنا إعصار الذكريات الذي هبَّ عليه فجاءة، وهزَّه هزاً في الوقت الذي كان فيه مستسلماً لتفكيره الهادئ.

ويصف الشاعر الريح والليل وأبوابه التي يلطمها الإعصار وينادي عهده متسائلاً:

يا عهدي الملحود
أثملني النسيان
أفي الليالي السود
ينصدع الجلمودْ
وتخطرُ الأكفان؟

ز- **احترق..احترق عام ١٩٤٠:** ويقول الشاعر: حين ينقلب الأمل فجاءة يأساً وقنوطاً. وإذا كان الشاعر في المقطع الأول من شعره يدعو إلى عدم الاحتراق:

لا تقفْ يا قطار

لا تهن يا خَفَق

نخلات الدّيار.. من وراء البحار

لمعتْ في الأفق

ويك! لا تحترق

ويدعو الأمل إلى السير به في الدجى قائلاً:

سرْ بنا سرْ بنا في الدُّجى يا أمل

الهوى نائيُنا

والمدى غائيُنا..

يا هنا من وَصَلْ

بعد فوت الأجل!

فإنه في المقطع الأخير يدعو إلى الاحتراق:

قف بنا يا قطار

واستَرِحْ يا خفق

بيننا والدّيار

غمراتُ البحارْ

وظلام الأفق

احترِقْ.. احترق!

وهكذا انقلب الأمل فجاءة يأساً وقنوطاً عند الشاعر، ويقف الدكتور شكري فيصل عند هذه القصيدة في حفل استقبال الطرابلسي ليؤكد أنها مزيج رائع من الحنين يمثله التطلع إلى النخلات وقد تلامحت من وراء البحار ويمثله القطار أداة الوصول إلى الوطن، وقد حملته كل سرائر النفس، فنوسٌ بين الأمل يعبر عنه: ويك لا تحترق، وبين اليأس يعبر عنه: احترق، احترق..

ح- **وحدة ١٩٤٠**: وقد وضع الشاعر هذا البيت تحت عنوان قصيدته (وحدة):

«أنت الـذي مـن قبـل أن يولـدا   قُــدّر أن ينزلهـــا أوحـــدا»

وهي قصيدة تجمع بين الشعر العمودي والشعر الحديث، وقد تعددت قوافيها وأوزانها، وتغلب عليها مسحة تشاؤمية، ويتردد فيها المقطع التالي:

أنت الذي من قبل أن يولدا

قدّر أن ينزلها أوحدا

والغد مثل الأمس والحاضر

فما الذي تنشد يا شاعري؟

ويؤكد الشاعر أنه ما دام الأمس مثل الحاضر والغد فإن النعيم الذي يبحث عنه، والسلوى التي ينشدها، كل ذلك لا طائل من ورائه.

ط- **أمام تمثال ١٩٤١**: والتمثال الذي نظم فيه الشاعر قصيدته هو تمثال إتيان دولية «Etiene Dolet»، صاحب مطبعة ولغوي ومصلح ديني فرنسي في عصر النهضة. صلب وأحرق بأمر الكنيسة الكاثوليكية عام ١٥٤٦ في ساحة (موبر) في قلب الحيّ اللاتيني في باريس حيث نصب تمثاله فيما بعد.

ثم انتزع الألمان هذا التمثال فيما انتزعوه من تماثيل كثيرة في أثناء احتلالهم

فرنسا في الحرب العالمية الثانية استثماراً لمعادنها التي كانوا يفتقرون إليها في صناعتهم الحربية.

ويصوّر الشاعر الأعمال التي قام بها المعتدون على التمثال بعد أن قدّسوه من بعد ما أحرقوه وعملوا على تخليده.

ي- **الرجل الساندويتش ١٩٤٤:** وتحت هذا العنوان يقول الشاعر: يَنْبِزون بهذا اللقب في فرنسا رجلاً يشدُّون إلى ظهره وصدره وجانبيه لوحات خشبية عليها مصوَّرات إعلامية مزركشة. ومن هنا لقبه، لأنه، وهو محصور بين ألواحه أشبه ما يكون بالشطيرة.

ويسير هذا الرجل بين المارَّة يوزّع عليهم النشرات، وكثيراً ما يتحلق حوله الأولاد ساخرين منه.

وكان لكل دار سينما رجل أو رجال من هذا النمط. أما اليوم فقد أصبح المشهد نادراً بعد تطور وسائل الإعلام.

والقصيدة التي نظمها الشاعر متعددة القوافي، يصوّر في المقطع الأول منها ما فعله الناس تجاهه ثم يصور حركاته في وسط المارة.

٥- قسم عبرات

ويضم كتاب «كان شاعراً» للطرابلسي حيّزاً لمواقف الرثاء، وقد وضع عنواناً له «عبرات»، ويشتمل على خمس قصائد هي: «خيال أمي غاب، مصرع الصقر، في رثاء شقيق حبيب، عدنان المالكي، غربتان». وقد رتبت هذه القصائد ترتيباً زمنياً.

أ- **خيال أمي غاب:** يقول عنها الطرابلسي: هي منظومة، على براءة مضمونها وطفولة عباراتها، لها في قلبي مكانة خاصة:

أولاً: لأنها في مناجاة أم لا أعرف لها صورة.

وثانياً: لأنها أولى ما نشرتُ في رسالة الأستاذ المرحوم أحمد حسن الزيات عام ١٩٣٤، وأنا بعد تلميذ في المرحلة الثانوية.

والمنظومة متعددة القوافي.

ب- <u>مصرع الصقر ١٩٣٩</u>: وهي قصيدة ألقاها الشاعر في أربعين الملك غازي في باريس، وجاءت في خمسين بيتاً وفي قافية واحدة ومطلع القصيدة:

أقبل الليل من وراء الدهور   يتهادى تهاديَ المخمور

ثم يبين كيف دغدغ الغاب فاستكان إليه وسرت فيه رعشة المقرور، ويتابع وصف إقبال الليل وغفوة الغاب، ولم يكن هناك إلا النسيمُ يخطر هوناً، ويمسح الأعين النيام رفيقاً، وينادي الشاعر فتيَّ الصقور في رقدة الغاب قائلاً:

يا فتيَّ الصقور! أيُّ هموم   تتصبّاك يا فتيَّ الصقور؟

ويقارن بين حاله وحال أترابه إذ يقول:

لفَّ هذا الظلام أترابك   الصيدَ ببرد من غبطة وسرور

أسلموا الأعين القريرة للحلم   وهاموا في قصره المسحور

وسَهِرتَ الوحيدَ في ذروة الروح   تدير الأحداق في الديجور

ترمُقُ الغاب تارةً فتراه   غارقاً في سكونه والعطور

وتناجي السماء حيناً فتسبيك الدراري بالحديث المثير

ويصف الشاعر علوَّ همَّة هذا الصقر وكيف أن حلمَهُ تخطَّى كل مرعب وخطير، إلا أن العاصفات والرعود والبرق والسيول المزمجرة كانت بالمرصاد له، فوقع صريعاً.

ثم ينادي الشاعر بغداد لتوسد الصقر الصريع ضريحاً من جراحات صدرها، وأن رمسه مناط الأماني.

ويختم الشاعر قصيدته، وهو في غربته بباريس قائلاً:

أنـــا أبكـــي لـــه غريبـــاً فمنـــذا يُبلـــغ القـــبرَ مـــدمعي وزفـــيري؟

في بـــلادٍ لا الـــدار فيهـــا ديـــاري فـــأُعزّى، ولا القبـــور قبـــوري

ج- **في رثاء شفيق حبيب ١٩٤٥-١٩٤٦:** يقول الشاعر: «كان من أعذب أمانيَّ أن ألقاه بعد عودتي إلى الوطن إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية، ويشاء القدر أن تنتهي الحرب، وأعود إلى الوطن فلا ألقاه، وكانوا قد كتموا عني مصرعه الأليم إلى ما قبل سفري بأيام قليلة، وقد كتبت في بكائه نصوصاً عدة.

د- **عدنان المالكي ١٩٥٨:** اغتيل عدنان المالكي عام ١٩٥٥ في الملعب البلدي بدمشق، وأقيم له حفل عام ١٩٥٨ في الذكرى الثالثة لاغتياله في نيسان من هذا العام وذلك بعد شهرين من قيام الجمهورية العربية المتحدة، وألقى الشاعر في هذا الحفل قصيدة متعددة القوافي، وقد جاءت في ستة وخمسين بيتاً.

ويشير الشاعر في قصيدته إلى أنه جاء إلى الملعب البلدي في ذكرى عدنان كي يسكب في روح العقيد المالكي ما لم يسعه اللفظ من وحي خياله، جاء ليقدّم إليه هدية، ولا هدية أنبل من راية الوحدة.

وينتقل الشاعر إلى الإشادة بالوحدة التي ناضل من أجلها الأحرار الأوفياء داعياً الله حمايتها من شراك الأجنبي.

ويعرّج الشاعر في قصيدته على حلف بغداد الذي أقامه المستعمرون.

ثم ينادي أخاه عدنان قائلاً:

يا أخي عدنان قمْ ناجِ الجموعا نحن في يومك لملمنا الدموعا

وينادي الشاعر أمته مبيِّناً أن القدر حمَّلها وحدها عبء التحرير إنْ في فلسطين أو في الجزائر، فها هو ذا يقول:

قدرٌ يا أمتي أن تحملي وحدك العبء لإيقاظ الضمائر
وتُعيدي للورى إشراقةً طالما حنَّ لها خلف الدياجرْ
قدرٌ حُمِّلْتهِ فارتقبي بعد برح الصبر أنغام البشائر
يوم تمضي (دير ياسين) وقد ضمّد الجرحُ إلى عرس (الجزائر)

هـ- **غربتان:** ويقول الشاعر تحت هذا العنوان: «على قبر الصديق حكمة هاشم، وكنا اغتربنا معاً منذ ثلاثين عاماً، ثم مات غريباً في باريس عام ١٩٨٢»، ولم يكن يدري الشاعر الطرابلسي أنه لاحق بصديقه ليموت في غربته ويدفن بباريس أيضاً عام ٢٠٠١.

٦- **قسم ذاتيات**

وثمة حيّز خاص في ديوان الشاعر وضع له عنوان «**ذاتيات**» وقد ضمَّ اثنتي عشرة قصيدة، وقد رتبت ترتيباً زمنياً، وتجمع بين الشعر العمودي والشعر الحديث. وفيما يلي فكرة موجزة عن كل منها:

أ- **المصباح ١٩٣٧:** ويبدو أن هذا العنوان جاء من بيت الشاعر الأخير في منظومته إذ يقول:

حبيبي إن في قلبي
ليالِيَ ما لها فجرُ
ولولا طيفك اللماح ما شعّ بها كوكبُ

ويتابع قائلاً:

حبيبي! بان لي الكونُ

عرفتُ نجومه الحيرى

عرفتُ زهوره الغضهْ

عرفتُ النسمةَ الفرحى

عرفتُ الحُلُمَ الشادي

عرفتُ الأمل الحاوي..

نشيدَ الروح! هل كنا سوى طيرين في روضه

فمن ظلٍّ إلى ظلٍّ ومن وادٍ إلى وادِ ....

ب- **اللحن المخنوق ١٩٤٠**: وفي هذه المنظومة من الشعر الحديث يقول إن في فيه لحناً ولكنه لا يغني، ويسأل: إذا غنّى فمن يفهمه؟ فها هو ذا يقول:

في فمي لحنٌ ولكن لا أُغنّي

وإذا غنيّتُ من يفهمني؟

أنت لا تستطيع أن تسمع لحني

وأخاف الكون أن يسمعني.

ويذكر أن ثمة شوقاً لديه ليسمع الأطيار في الخليقة لحنه، إلا أنه يمضي والأسى يغمره مادام حبيبه لا يستطيع أن يسمع لحنه فهل يوجِّه لحنه إلى غيره؟

ويذكر أنه عندما يمشي وحيداً على الشاطئ ويرى الموج تهيج الوحدة آلامه وأحزانه، فيتذكر الليل والأنجم والموج، ويهفو في صدره النشوان لحن، إلا أنه يمضي والظلام يلفه ويعزف عن بثِّ لحنه ما دام حبيبه لا يسمعه فلمن يعزف لحنه؟

ج- أنتِ... وأنا... ١٩٤٠: وفيها يوازن بين حالها وحاله، فإن رأت الليلة الحالكة والطفلة المشرقة الضاحكة وقد أضاعت لعبتها فهو الليلة وهي برقته وهو الطفلة وهي لعبته وهي فرحته ودمعته. وإن وجدت الناسك في ديره والماجن العربيد في سكره فهو الناسك وهي نغمته، وهو المخمور وهي خمرته، وهي جنته وسقره، وإن رأت الشاعر المتحيّر يقدّس الحسن عبر سبحته، والجائع الثائر فهو الشاعر وهي سبحته، وهو الجائع وهي نهمته وحاجته، وهي جسده وفكرته.

وفي المقطع الأخير يرى أنه لو وجدت المبتهل المؤمن وقد صبا إلى الحورية، والماجن المستهتر الأرعن وقد تعلّق بالعاهرة مستقطراً السم منها، فإنه هو ذلك المبتهل المؤمن، وهو ذلك المستهتر الأرعن، وهي دليلة التي غدرت بشمشون الجبار وسلمته إلى أعدائه، وهي حوريته أيضاً.

د- سراب ١٩٤٠: وفي هذه المقطوعة يصوّر حاله مع حبيبته التي أحبها، إلا أن حبه لها كان سراباً مع أنه بارك يديها وحرَّق شبابه على لظى شفتيها، وحافظ عليها، ولكنه بعد أن فقد فرحته ويومه وأمسه خبأ وراء نفسه المحطمة كبرياءه.

هـ- أحب فيك ١٩٤١: وفي هذه القصيدة يوضح الشاعر الصفات التي يحبها في شخصية حبيبته، فهو يحب السهام التي توجهها إليه فتدمي شبابه ولكنها تحييه، ويحب الغدر في عينيها ظاهراً ومخفياً، ويحب الدلَّ والخفر والوفاء والمكر والتمويه والكبر والتيه في حركاتها كافَّة، ويهواها عندما تسرف في منحه الحب وعندما تمنع الحبّ عنه، ويهوى ذكاءها في حالي الترغيب والترهيب، كما يحب الوعد الذي يرشفه من شفتيها في الوقت الذي تضحك فيه عيناها مكذبتين ذلك.

و- **الفصول الثلاثة ١٩٤١**: وهي قصيدة في ثلاثة مقاطع، يصوّر الشاعر في المقطع الأول دوام حبه لها وهو يخاطب فؤاده، ويشير إلى أن الشكَّ يعذبه في المقطع الثاني بعد أن خيّم الليل جهم الجبين، وفي المقطع الثالث يصحو ممزّقاً الحجاب وقد عاذ بمنديلها ليتقي سموم مفاتنها المعلنة فلملم دمعه به.

ز- **عيناكِ عيناكِ**: يطلب الشاعر إلى حبيبته في هذه القصيدة أن تثبت عينيها في عينيه لأن في عينيها السماء، وأن تطبق جفنيها لأن فيهما البحر، وأن تنظر إليه ففي عينيها قلبه في خفوقه وحنينه، وفيهما لهفته وحبه وأحلامه وشعره، وأن تسدل القناع ففي عينيها ليل وقلبها المغلّف بالألغاز، ويؤكد الشاعر طلبه إليها في تثبيت عينيها وتطبيق جفنيها ونظرتها وإسدال قناعها فها هو ذا يقول:

أثبتـي أثبتـي بعينـيَّ عينيـك ولا تُسـدلي قنـاعَ الجفـونِ
فـيهما هـذه السـماء فخلّينـي أطهِّـر في مقلتيـك شـجوني

* * *

أطبقي أطبقي الجفون فكم أرهـب مـوتي في مقلتيك غريقـا
فيهما البحر ساكن الموج نشوان بكأس الدُّجى، عميقاً..عميقا

* * *

انظـري، انظـري إليَّ ففـي عينيـكِ قلبـي خفوقُـه وحنينُـهْ
فـيهما لهفتـي وحبـي وأحلامـي وشـعري ألوانُـه ولحونُـه

* * *

أَسـدلي أَسـدلي القنـاعَ ففـي عينيـكِ ليـلٌ لا تستشـف نجومُـهْ
فـيهما قلبُـك المغلَّـفُ بالألغـاز ماجـت أسرارُه وغيومُـهْ

ح- **ترنيمة ١٩٤٢:** ويوضح الشاعر في هذه المقطوعة كيف أن حبيبته هي التي فجَّرت الحب في أعماقه لا بل هي التي أبدعته وجعلته يلقى الحياة بنظرة المفتون، وأشعرته نفسه بعد أن كان قد جهلها من قبلُ، ولم يكن يدري من هو؟ وعلمته الحب الذي أنكره من قبلُ، وإذا هو يحطم أسهمه وينكس رايته، ويدخل قدسها وفي جفونه دمعة.

ط- **مُرّاكش الحبيبة ١٩٨٩:** وقد كتب الشاعر تحت هذا العنوان «حنينٌ من باريس، ليلة عيد الميلاد، والأرض جمّدها الصقيع، إلى دفء مراكش، وفي صورة جميلة يتبدى فيها الوفاء إلى حبيبته مراكش نلاحظ الوصف البارع والمؤثر.

ي- **همسات في أذن صورة:** ويوجه التحية في هذه المقطوعة إلى الصورة، ويصف الأفعال التي يقوم بها تجاهها، وقد تعلّق بها، ويفديها بما يملك من الدنيا.

ك- **دُعابة ١٩٤٣:** وفيها يدعو الغادة إلى المجيء إليه لأنه غني، فهو غني بفؤاده وحبّه ولو عرفت ذلك الغنى لديه لطارت إليه معانقة فها هو ذا يقول:

تعالَي فعندي ما لو عرفتِ لطرتِ إليَّ وعانقتني
فؤادي؟ ! دفنتُ فؤادي السخيف وواريتُه عن خنا الأعينِ
وحبي؟ ! نشرتُ على نعشه حجاباً من السَّفه الأرعنِ
وقطَّعتُ أوتاري المضحكات.. وأقلعتُ عن شعري الهيّنِ
تعالَيْ، فعنديَ ما تسجدين له سجدةَ التائب المُذْعنِ
وما تنحرينَ على نعلهِ قرابينَ من كِبرِكِ المُعْلَنِ
تعالَيْ إليَّ ... فإني غني!

ل- **يا أميرة ١٩٧٠**: وكتب الشاعر تحت هذا العنوان: «في عيد ربيعها العشرين، أرادت أن أهديها عشرين بيتاً ولو غزلاً». وفي المقطع الأول من القصيدة يرحّب بصغيرته المغربية ذات الطلعة النضيرة والحلوة بسماتٍ وقسماتٍ، ويبيّن ما الذي أحدثته إشراقتها الربيعية في نفسه.

وفي المقطع الثاني يشبه صغيرته بالوردة التي بث فيها المغرب الزاهي عبيره وينظر إليها وإلى عينيها ولحظاتها الكسيرة ويروح يسأل هدبها المسدول.

وفي المقطع الثالث يبيِّن أنه إذ يحبها فما هو إلا منبع يهوى نميره، وهو الجنّان الذي يهوى الزهور في جناته، والمثّال الذي يعشق مرمراً سوّاه صورة، ولم يعد أمر الشاعر في يده بعد أن فقد رشاده وبصيرته، وبعد أن استعر اللهيب في صدره. ويصرخ الشاعر في المقطع الأخير:

يا روح روحي ! سيرتي   في حبيَ المجنونِ سِيرَه!
أحييتِ لي صوراً مضتْ   وبعثتِ بي ذكراً كثيرَهْ
ألقي برأسك فوق خفق الصدر تستمعي هديرَهْ
قلبي الأسيرُ فعذبيه، وعذّبي نفسي الأسيرة
رَهنان في كفيك يا   بنت المغارب.. يا أميرة

ويجعل الشاعر خاتمة ديوانه الشعري قصيدة عنوانها «قالوا سكت؟ ويجيء تاريخ هذه القصيدة في عام ١٩٣٩.

وعن هذه القصيدة يقول الشاعر: نشرت في صباي عشرات القصائد ثم توقفت عن النشر لأسباب نفسية خاصة، فكثرت التساؤلات، والقصيدة هي صدى تلك التساؤلات، وقد أخرتها عن موضعها لتكون خاتمة لهذه المجموعة.

جاءت القصيدة في خمسة وعشرين بيتاً ومطلعها:

قالوا: سكتَّ عن الغناء؟ فقلت: لا   في مسمع الأكوان رجْع غنائي

ثم يفصّل مسارات ترانيمه التي وعتها الطيور وردّدتها كواكب الظلماء، وما الورد والشفق المخضب واللظى إلا من وميض دمائه، وما البحر في أمواجه إلا صدى أهوائه، وما هبَّات الريح بعد الونى إلا انبعاثه بعد موت رجاله، وما الليل والأرماس إلا بعض كآبته، وما الفجر والأعراس إلا بعض هنائه، والعيد مسرح فرحته ومباهجه في حين أن البيد مثوى وحشته وفنائه. ويذكر الشاعر أنه ملأ من الجمال جوانحه:

ولقد ملأت من الجمال جوانحي   وطويتُ فوق جلاله أحنائي

ويعود الشاعر ليردد قوله الذي بدأ به قصيدته:

قالوا: سكت عن الغناء؟ فقلت: عن أن أُريق على الجحود وفائي

ما ضرَّني إن كنت عندي شاعراً   ألا يعدّوني من الشعراء

لا كان قلبيَ إن طلبتُ بذوبه   من كفّ هذا الدهر بعض جزاء

لا كان شعري إن رفعتُ لواءه   بين الأنام على رُفات إبائي

قالوا سكت عن الغناء؟ فقلت لا   في مسمع الأكوان رجْع غنائي

ثانياً- من سمات شعر الطرابلسي

كان الطرابلسي يبتعد عن حوشي اللفظ ووحشيّه، ولا يستعمل الكلمة النادرة إلا فيما ندر، وفي الشعر أكثر منه في النثر، إذ إنه كان يعطي لكل معنى حقه بكل سهولة ويسر، وهذا أمر بدهي مادام يملك ناصية اللغة اختياراً وتنسيقاً وجمالاً، فقد كان هائماً باللغة العربية ومأخوذاً بجمالها، ينتشي لسحر بيانها، وكانت أداة طيّعة لقلمه ولسانه، فإذا شعره لوحات آسرة، وقيثارة يستخرج منها ألحاناً عذبة لأروع المعزوفات، وما كان ذلك ليحدث لولا حسن تنسيقه لوضع الكلمات والتحسب لوضعها في الأذن والمخيلة، وإنك لواجدٌ ترابط ألفاظه وتبويب مقاطعه وتسلسل أفكاره، والحرص على الجمال في أسلوبه، وما ديدن الأدب لديه إلا حب الجمال توقاً إلى الكمال بفضل ما أوتيه من قريحة متقدة، وفكر متجدد سعياً نحو الأجمل والأبهى والأكمل.

ويتجلى التجديد في شعر الطرابلسي في المعاني التي تناولها، وفي الأساليب التي استخدمها، والموسيقى العذبة التي تبدّت في أغلب قصائده، ولقد أشار الدكتور شكري فيصل في حفل استقباله إلى أن موسيقاه الشعرية تمثلت في شيئين: أحدهما الأشكال الشعرية التي سكب فيها شعره وثانيهما في الأبحر التي استخدمها، وهذان يمثلان نزعة واضحة في التجديد الوزني أو الموسيقي.

ومن يلق نظرة على شعر الطرابلسي يجد أنه لم يخرج عن الأبحر والتفعيلات، ولكنه استطاع أن ينوّع في القوافي، ويعدّد في الأشكال. ويجد أن ثمة حزمة من المشاعر الحزينة والعواطف النبيلة تغلّف قصائده على المستويين الفردي الذاتي والجماعي القومي والإنساني، إلا أنه مع الحزن والآلام التي كابدها الشاعر في طفولته، وفي شبابه عندما تحطّم حلمه القومي في الوحدة بعد الانفصال الذي

حدث بين سورية ومصر عام ١٩٦١، كان متفائلاً بعودة أمته لأن تستأنف مسيرتها، فها هو ذا يقول:

لا يرعْك الظلام إن ملأ الكون فإن الصباح سوف يؤوب.

وإذا كان الطرابلسي شاعراً ملتزماً بقضايا أمته الاجتماعية والقومية كما تبدى لنا ذلك في قسم القوميات في كتابه «وكان شاعراً» وفي عدد من القصائد في أقسام أخرى من الكتاب فإنه كان ذا رؤية استشرافية إذ إنه كان يرى الأحداث قبل وقوعها، وكان الرائد الذي لا يكذب أهله في كثير من الأرزاء التي ألمت بالأمة.

رحم الله الدكتور أمجد الطرابلسي الرحمة الواسعة، سعة ما قدمه لأمته ولغتها من أفانين العطاء الفكري التنويري، ولتبقَ سيرته العطرة وأعماله القيّمة قدوة أمام الأجيال ينهلون منها الزاد المعرفي والوجداني الذي يسمو بالعقل والضمير إلى الأبهى والأجمل والأكمل!.

الملحق

الكلمات التي ألقيت في حفل تأبين

الدكتور أمجد الطرابلسي

الكلمات التي ألقيت في حفل تأبين الدكتور أمجد الطرابلسي

١- كلمة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق باسم المجمع.

٢- كلمة الأستاذ الدكتور محمود السيّد وزير التربية باسم وزارة التربية.

٣- كلمة الأستاذ الدكتور عادل العوّا باسم جامعة دمشق.

٤- كلمة الأستاذ الدكتور عبد الله عبد الدايم وزير التربية الأسبق باسم أصدقاء الفقيد.

٥- كلمة الأستاذ المهندس محمد أيمن الطرابلسي باسم أسرة الفقيد.

كلمة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام

رئيس مجمع اللغة العربية

في يوم الأحد (٤/ ١١/ ١٤٢١هـ = ٢٨/ ١/ ٢٠٠١م) وافت المنية أستاذنا الكبير الدكتور أمجد الطرابلسي، ففقدنا بوفاته عالماً جليلاً، وناقداً ألمعياً، ومربّياً قديراً، وكاتباً بليغاً، وشاعراً رقيقاً. وكانت الفجيعة بفقده بالغة، وملأ الحزنُ عليه النفوس. رحمه الله الرحمة الواسعة، وأنزله منازل الأبرار في جنات النعيم، مع الصديقين والشهداء الصالحين.

وإن سيرة الفقيد، عليه الرحمة والرضوان، حافلةٌ بالعطاء الطيب، والبذل السخيّ، ولا عجب، فقد أمضى زهاء خمسين عاماً في ميدان التعليم يؤدّي واجبه أحسن ما يكون الأداء، ويواصل العمل دون توقف، يؤلّف ويحاضر، ويُعنى بإصلاح المناهج، ويتابع ما جدّ على الساحة في علوم اللغة والأدب. وكان، فوق، ذلك شديد العناية بطلابه في الدراسات العليا، يقدّم لهم خير ما عنده، يوجّههم ويسدّد خطاهم، ويؤهلهم للقيام بواجبهم على أحسن الوجوه وأرضاها. وهو صاحب القولة المشهورة، وقد سئل: لم لا تؤلف كتباً فقال: «اخترت تأليف الرجال».

وقد ظهر من طلابه وخريجيه نابغون أكفياء، يتابعون الرسالة التي تسلّموها من أستاذهم الذي أحسن رعايتهم، ورفع في منازل العلم رتبتهم.

ومجالُ القول في سيرة الفقيد واسع، متعدد الجوانب، غزير المادة. ولكنّ المقام يدعوني أن أجمل الحديث وأوجز القول.

ولد الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي بدمشق عام ١٩١٦م[١]. وكان أبوه حسني بن محمود الطرابلسي ضابطاً في الجيش العثماني، ثم ضابطاً في الجيش الفيصلي. ويشاء القدر أن يفقِد الوليدُ الصغير أمَّه التي اختطفتها المنون عام ١٩١٨م، وهو ابن سنتين. وقد لا نجاوز الواقع إذا قلنا إن الوليد أحسَّ أنه فقد شيئاً ثميناً غالياً لا يعوّض. ونَعِم الوليد برعاية أبيه ونظراته التي تفيض حباً وحناناً وعطفاً، إلى أن بلغ التاسعة من عمره (عام ١٩٢٥م) فجاءته الضربة الثانية التي أفقدته أباه، فعاش يتيماً في كفالة جَدّه وأعمامه الذين أحاطوه بضروب الرعاية، وعُنوا به أتمَّ عناية. وبدأ دراسته الأولى في الكُتّاب، ثم التحق بالمدرسة، ولما أنهى المرحلة الابتدائية انتقل إلى ثانوية عنبر (عام ١٩٢٧م) وقد ضمّت هذه الثانوية نخبة من الأساتذة العلماء. يقول الأستاذ الدكتور أمجد في خطاب استقباله عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية متحدثاً عن هذه المدرسة: «وكانت هذه المدرسة حين انتسبتُ إليها تضمُّ في عداد أساتذتها ثلاثة من فحول العربية، كلُّهم أساتذتي، ولكل منهم عليَّ من الفضل ما لا يسعه عرفاني بالجميل: اثنان منهم كانا عضوين عاملين في المجمع هما عبد القادر المبارك وسليم الجندي، والثالث كان يشقُّ طريقه إلى المجمع، وهو محمد البزم. أعلام ثلاثة أحالوا المدرسة آنئذٍ إلى مجمع آخر بعلمهم الغزير، ودروسهم الشيقة» [٢]

---

(١) هذا ما جاء في سجلات الأسرة. ويقول الدكتور أمجد: «وثقتي بهذا التاريخ تفوق ثقتي بالتاريخ الآخر[١٩١٨م] الذي تلصقه بميلادي سجلات الدولة» (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٤٧، ج١: ١٥٧).

(٢) مجلة المجمع، مج ٤٧، ج١: ١٩٥.

ثم يقول متحدثاً عن الأستاذ محمد البزم[1]، سلفه في المجمع: «وانتسبتُ إلى تجهيز عنبر عام ١٩٢٧م، وهو العام الذي عُين فيه البزم مدرساً للعربية في تلك المدرسة. وبهذا أُتيح لي أن أكون قريباً منه خلال سنوات سبع، منها سنتان قضيتهما متلمذاً له في الصفين: السابع والثامن».

وكان لمكتب عنبر أثر يذكر في تنمية شخصية الدكتور أمجد وتفتح مواهبه. ويقول الأستاذ ظافر القاسمي في وصف مكتب عنبر: «ذلك أنه لم يكن مكتباً لتعليم الفتيان فحسب، وإنما كان مؤسسة قائمة بذاتها، لها تقاليدها وأعرافها، ولها نظمها وطرائقها، ولأنه كان معقلاً من معاقل الوطنية الصادقة، وحصناً من حصون الفصحى»[2].

لقد أرضى الشابُّ الناشئ ميوله العلمية والوطنية، وروَّى نفسه من علوم اللغة العربية وآدابها، ولعله مضى شوطاً بعيداً في هذا المضمار فاق به من حوله. يقول الدكتور شكري فيصل متحدثاً عن مكتب عنبر والدكتور أمجد: «هذا البيت العتيق الذي خرج منه العلماء والأدباء والشعراء، خرج منه الثائرون والمصلحون... في عنبر تفتحت عبقريات... أمجد الطرابلسي أحد هذه العبقريات الفذة... »[3].

وقبل أن يودّع الأستاذ أمجد مدرسته الثانوية فاجأ الناس بقصيدة أثار بها إعجابهم ودهشتهم. إنها قصيدته الأولى التي نشرتها مجلة الرسالة (في ١٦/ ٤/ ١٩٣٤م)، تحدث

---

(١) انظر ترجمته في كتاب: «مكتب عنبر» للأستاذ ظافر القاسمي: ٥٤-٥٩، والأعلام للزركلي ٧: ٩١، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٢: ٦.

(٢) مكتب عنبر: ٣٨.

(٣) مجلة المجمع، مج ٤٧، ج١: ١٥٩-١٦٠.

فيها عن أمه التي افتقدها وهو ابن سنتين، فوصف ما يضطرب في نفسه من لواعج الأسى والحسرة بأجمل أسلوب، وكأنّ شعره لم يعرف مرحلة القرزمة، فجاء مكتملاً سائغاً عبّر عما عانى ويعاني من فقد أمه التي رزئ بها وهو بعدُ في المهد.

وقد قدّم الدكتور أمجد لقصيدته في مجموعه الشعري: «كان شاعراً» بقوله: «منظومة على براءة مضمونها وطفولة عباراتها لها في قلبي مكانة خاصة،

أولاً: لأنها في مناجاة أمّ لا أعرف لها صورة...

وثانياً: لأنها أول ما نشرتُ في رسالة الأستاذ المرحوم أحمد حسن الزيات عام ١٩٣٤، وأنا بعد تلميذ في المرحلة الثانوية».

ومما نقتطف منها:[1]

مـــا لفـــؤادي ذابْ	يلفحـــــه الوجــــدُ
وللـــدجى قـــد شـــابْ	ولم أنــــمْ بعــــدُ؟
مـــا للأســـى قـــد ثـــارْ	في كبــــدي الحـــرّى
ومــــا لـــــدمعي حـــارْ	في مقلتــــي الحـــيرى
أحنـــــو إلى التـــذكارْ	ولـــيس مـــن ذكـــرى...
خيـــالُ أمـــي غـــابْ	وإلفـــــيَ المهـــــدُ
عـــدا مـــع الأحقـــابْ	ولم يـــــزل يعـــــدو
في زمــــن لعّـــــابْ	لـــــيس لــــه عهــــدُ
يــــروح بالأوصــــابْ	وبـــــالجوى يغـــــدو

(١) مجلة الرسالة: العدد ٤١-١٦/ ٤/ ١٩٣٤م، كان شاعراً: ١٢٣-١٢٥، وقد نشرت القصيدة في مجلة الرسالة بعنوان (نجوى يتيم)، وفي كتابه: كان شاعراً، بعنوان (خيال أمي غاب).

ولئن عبّرت القصيدة عن عواطف الدكتور أمجد وما يستسرُّ في نفسه، ودلّت على إحساسه المرهف ورقة مشاعره، إنها كشفت أيضاً عن مقدرته وتفوقه، وامتلاكه ناصية اللغة، وموهبة الشعر، وأسرارَ البيان، وهو بعدُ في ختام المرحلة الثانوية.

وشهدت تلك السنة (١٩٣٤م) عدةَ قصائد نشرها في الرسالة، عرفتُ منها: (السائلة)، و(عاصفة في قلب)، و(عرس في مأتم) و(في الروض المحزون)، يغلب عليها الشكوى، ولكنها شكوى الشابّ يواجه الحياة ومشكلاتها، ويبحث عن طريقه فيها.

ولــربَّ لــيلاتٍ لبثــتُ بهــا ... سـهرانَ أرقبُ طلعة القمرِ[1]
أشــكو لــه همّــاً يســاورني ... وأبــثُّ بعـض مظـالم البشـر
تلـك الطفولـة مـا عرفـت بهـا ... إلا الـدموعَ وأكـؤس الصَّـبِرِ

وجاز الدكتور أمجد امتحان البكالوريا – قسم الفلسفة (سنة ١٩٣٤م)، وأخذ يشقُّ طريقه في الحياة، واختار التعليم في وزارة المعارف ليُمضي فيه نحو ثلاث سنوات (١/ ١٠/ ١٩٣٥-١٠/ ٥/ ١٩٣٨م).

ثم نجح في المسابقة التي جرت لنيل درجة الإجازة في الأدب العربي، وسافر إلى فرنسا في ١١/ ٥/ ١٩٣٨م في صحبته زملاء أصدقاء من خيرة شباب الوطن، هدفهم أن يدرسوا الدراسة الجادّة، ليعودوا وقد امتلأت عيابُهم علماً ومعرفة، كي يشاركوا في خدمة وطنهم الحبيب.

وفاجأتهم الحرب العالمية الثانية وهم في فرنسا، فعانَوا فيها من ظروف الحرب الصعبة، وفقدوا الأمل بالعودة العاجلة، لقد تقطعت السبل فأكبَّ الدكتور أمجد على

---

(١) مجلة الرسالة: العدد ٧٦-١٧/ ١٢/ ١٩٣٤م.

متابعة الدراسة، وضمّ إلى درجة الإجازة الجامعية دراسة درجة الدكتوراه فحصل عليها، وعاد إلى الوطن في أواخر عام ١٩٤٥م، بعد أن أمضى في فرنسا نحو سبع سنين ونصف السنة (١١/ ٥/ ١٩٣٨-١/ ١١/ ١٩٤٥م).

فدرّس سنة في مدرسة التجهيز الثانوية (١/ ١١/ ١٩٤٥- ٤/ ١٢/ ١٩٤٦م) لينتقل بعدها إلى رحاب الجامعة.

واحتلَّ الأستاذ أمجد كرسيه الذي كان ينتظره في كلية الآداب، وبدأ مرحلة جديدة في حياته امتدت اثنتي عشرة سنة (٥/ ١٢/ ١٩٤٦- ٣١/ ١٠/ ١٩٥٨م)، درّس فيها الأدب العربي، وأرسى قواعده، وبسط مناهجه، وضرب المثل الصالح في طرائق التدريس التي سلكها لينشّئ طلابه، وقد تزودوا بزاد من المعرفة وحبّ البحث يقوَوْنَ بهما على القيام بعملهم، وأداء رسالتهم العلمية على الوجه المَرْضِيّ، كما كان، رحمه الله، القدوة الحسنة فيما بذل من جهد جاهد، وعمل دائب لينهض بما أخذ به نفسه من مهام، فكان يدخل الجامعة في الصباح، ليعود منها في المساء، لا يخرج منها إلا لساعتين، فكان يستقبل طلابه طوال النهار، ويرشدهم ويوضح لهم ما أشكل عليهم(١).

إنها سنوات العطاء والبذل والتضحية دون توقف ولا منّ.

وطالما أثنى المتحدثون من طلابه وعارفيه على طريقته البارعة في التدريس، فأشادوا بصنيعه، وأفاضوا في ذكر سعة علمه، وتمكّنه من مادته، وحسن تأتيه ليجعل الصعب سهلاً، والبعيد النافر قريباً ميسراً. ومن هنا كان تعلق الطلاب التعلق الشديد بحضور دروسه في إصغاءٍ تام، وتحفزٍ لفهم ما يلقيه عليهم واستيعابه.

---

(١) مجلة المجمع، مج ٤٧، ج١: ١٦٤.

وعلى كثرة ما بذل، رحمه الله، لتزويد طلابه كي يبلغوا الغاية التي يريدها لهم، فإنه آثر أن يتصدّى أيضاً لتأليف كتب تعزّز مواقفه في دراسة الأدب، وتعين طلابه، فكان من نتاج هذه المرحلة:

١ - كتاب: النقد واللغة في رسالة الغفران / ط ١٩٥١م.

وقد عرضه الأستاذ الطرابلسي بنظرة جديدة، فبيّن أن أبا العلاء يتبدّى لنا في كتابه رسالة الغفران عالماً واسع الاطلاع على فنون الأدب، وعلوم اللغة. وهو، إلى ذلك، ناقدٌ من الطراز الأول، نشيط الفكر، ذكيّ، متمكّن من أدوات النقد كل التمكن، فقلب بنظرته الجديدة نظرات الباحثين السابقين رأساً على عقب، فقد رأوا أن المعري إنما قصد في رسالته إلى وضع قصة سماوية عبقرية يقيمها على أساس من الخيال والتهكم، فكشف أستاذنا في الفصول التي حبّرها في كتابه عن مدى العناية التي خصّ بها المعري النقد الأدبي والدراسات اللغوية في رسالة الغفران. وبذلك أعادنا لنعيش في جو العصر الذي عاش فيه حكيمُ المعرة وأديبُها ولغويُّها الأكبر. وأتاح الكتاب للباحثين أن يستأنسوا بنظراته الجديدة في دراساتهم الحديثة.

٢- كتاب: نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب / ط ١٩٥٥.

(الجزء الأول: اللغة والأدب)

وقد رمى الأستاذ الطرابلسي من تأليف هذا الكتاب أن يضع بين يدي طلابه صورة للنشاط الفكري عند العرب في مادتي اللغة والأدب، كما رمى أيضاً إلى إرشاد الطالب الجامعي إلى المصادر والمراجع الهامة التي هو بحاجة إليها لاستكمال أدوات بحثه. ومن هنا كانت دعوته لطلابه لاكتساب المعرفة بالاطلاع على الكتب المصادر، والاتصال المباشر بالنصوص، ومعرفة أساليب الرجوع إليها، والاستفادة منها، ليقووا على البحث المبتكر.

٣- محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام

من أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين / ط١٩٥٧

وهذه المحاضرات ألقاها الدكتور أمجد على طلاب قسم الدراسات الأدبية في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة. وهي ثماني محاضرات.

تناول فيها مسيرة الشعر الحماسي الذي نظمه الشعراء العرب في معارك النضال القومي من أواخر القرن التاسع عشر، وكان مزمعاً أن يقف به في منتصف القرن العشرين، ولكنه توقف في نهاية حوادث الثورة السورية، مؤمّلاً أن يُتمّ القسم الثاني المتضمن أحداث ما بعد الثورة السورية حتى منتصف القرن العشرين، ولم تسعفه الأيام لينجز مطلبه.

وقد عرض الدكتور أمجد في محاضراته نماذج دالّة من الشعر العربي تتناول وصف عواطف العرب القومية الجيّاشة، وتطلُّعَهم إلى إحياء مجد الأجداد، وإلى جانبها الأشعار الحماسية التي تستنهض الهمم، وتذكّر بالمجد القديم الزاهر، وتندّد بالمستعمرين وأحابيلهم، وتدعو إلى متابعة الكفاح حتى النصر.

وقد أحسن اختيار النماذج التي تعبّر عن تلك العاطفة القومية التي تملكت العرب في إبان نهضتهم، وكشفت عن تطلعاتهم إلى تحقيق الوحدة العربية.

لقد أراد الدكتور أمجد بمحاضراته عن شعر الحماسة والعروبة أن ينعش دراسة هذا اللون الشعريّ الذي يعبّر عن مشاعر الأمة، ويستثير حميتها، ويحدو بها أن تمضي في طريق النهضة والتقدم، لتستعيد سالف مجدها.

ثم قامت الوحدة بين القطرين الشقيقين: مصر وسورية، فحملت للأمة العربية آمالاً كباراً، وآفاقاً فساحاً. وتولّى الأستاذ الدكتور أمجد منصب وزير التربية والتعليم في سورية / الإقليم الشمالي (٧/ ١٠/ ١٩٥٨-٢٧/ ٩/ ١٩٦١م) فبذل

جهده ووُكْده، وعمل ما وسعه العمل ليمضي بالوزارة ومؤسساتها خطوات إلى الأمام في سبيل العلم والمعرفة واللغة، وقد وفّق ونجح. ولكن التجربة القومية لم تمض إلى غايتها، وحدث الانفصال، وفارقنا الدكتور أمجد إلى المغرب، وشارك في التدريس في جامعات الدار البيضاء وفاس والرباط، واحتلّ من المكانة بين زملائه وطلابه في المغرب مثلَ ما كان له في دمشق، ورحّبت به المؤسسات. ولعله يتاح لأحد الباحثين أن يتحدث عن مناشط الدكتور أمجد العلمية في المغرب. ويكفيني هنا أن أذكر أن اتحاد كُتاب المغرب بالاشتراك مع جامعتي فاس والرباط قد أقام له حفلاً تكريمياً (في ١-٢/ ٤/ ١٩٨٧م) بمناسبة مرور ربع قرن على عمله في جامعات المغرب «وقد بيّن المحاضرون أن العلاّمة المحتفى به، سواء في مؤلفاته أو محاضراته، أو الأطروحات التي أشرف عليها يلتزم مزيجاً من منهجين في دراسة النصوص: المنهج التاريخي الذي يعتمد على فهم النص بحسب تقاليد عصره الأدبية، والمنهج النقدي التحليلي الذي يواجه النص بمناهج حديثة في كشف بنيته»[1].

لقد دامت إقامة الدكتور أمجد في المغرب نحواً من ثلاثين عاماً أو يزيد. وكان له نشاطه العلمي الواسع في جوانب عدة.

وإني مكتف هنا بالحديث الموجز عن بقية آثاره التي أصدرها أيام إقامته في المغرب. وكنت قد تحدثتُ عن كتبه الثلاثة التي ألفها حين كان أستاذاً في كلية الآداب بجامعة دمشق.

٤- زجر التابح «مقتطفات» لأبي العلاء المعري (ط١/ ١٩٦٥م، ط٢/ ١٩٨٢م):

عثر الأستاذ الدكتور أمجد بطريق المصادفة على مقتطفات من هذا الكتاب في أثناء

(١) مجلة الوحدة: العدد ٤٩، ص١٦٠.

زيارته للمتحف البريطاني بمدينة لندن سنة ١٩٥٤م، وهي السنة التي انعقد فيها المؤتمر الدولي الثالث والعشرون للمستشرقين بمدينة كمبردج.

كان يطالع في المخطوطة ذات الرقم / OR 5319 / التي تحتوي على الجزء الأول من لزوم ما لا يلزم للمعري، فرأى هوامش عدد من صفحاتها قد امتلأت بحواش كثيرة، وتبيّن له أن هذه الحواشي ليست سوى مقتطفات حرفية من (زجر النابح) الذي ألّفه أبو العلاء في الرد على من انتقده في مواضع من اللزوميات.

فقام بتحقيق الكتاب تحقيقاً جيداً، وقدّم له بمقدمة قصيرة، وبيّن المنهج الذي سلكه في ترتيب المقتطفات. وصدر الكتاب في مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

٥- كان شاعراً (ط ١٩٩٣م)

تحدثت قبل قليل عن أُولى قصائد الدكتور أمجد التي نشرها في مجلة الرسالة عام ١٩٣٤م، ثم إنه والى النشر في المجلة نفسها، وتطالعنا إحدى قصائده بعنوان: «قالوا: سَكَتَّ؟» وقد نشرها سنة ١٩٣٩م، ويقدّم لها الدكتور أمجد بقوله:

«نشرتُ في صباي عشرات القصائد، ثم توقفتُ عن النشر لأسبابٍ نفسية خاصة، فكثرت التساؤلات... والقصيدة صدى تلك التساؤلات».

وأكتفي بإيراد الأبيات الثلاثة في المطلع:

قالوا: سكتَّ عن الغناء؟ فقلتُ: ... في مسمع الأكوان رجعُ غنائي[1]
أنشدتُ في أذن النهار سعادتي ... وهمستُ في قلب الظلام شقائي
فوعت ترانيمي الطيورُ وردّدت ... همسي الخفيَّ كواكبُ الظلماءِ

لقد كان شاعراً رائعاً، وكانت له شهرته الواسعة لا في بلاد الشام وحدها، بل في البلاد العربية. ومن هنا كان الناس يترصدون شعره، ويتساءلون حين يتوقف عن الإنشاد.

---

(١) مجلة الرسالة: العدد ٣٠٥-٨/ ٥/ ١٩٣٩، كان شاعراً: ٢٠٣-٢٠٦.

ويقصُّ علينا الدكتور أمجد سبب تسمية مجموعه الشعري الذي نشره أخيراً: «كان شاعراً» (١٩٩٣) فيقول:

«كنتُ في الخمسينات أستاذاً في كلية الآداب بجامعة دمشق

وأقام الطلبة معرضاً لرسومهم الكاريكاتورية

وحين زرتُ المعرض وجدتُ رسماً لي كُتب تحته: «كان شاعراً»

ومن تلك اللحظة نويت أن أجعل من هاتين الكلمتين عنواناً لأول مجموع شعري أنشره وهكذا كان... ولكن بعد أربعين عاماً»(١)

ويضم مجموعه الشعري «كان شاعراً» أربعين قصيدة، اختارها من قصائده، ورتّبها حسب موضوعاتها، أقدمها: «خيال أمي غاب» نشرت في عام ١٩٣٤م، وأحدثُها «مراكش الحبيبة» نشرها في عام ١٩٨٩م.

وكان الدكتور أمجد يرى أن إخراج الشعر في مجموعات محدودة الحجم أقربُ إلى ذوق العصر، وكان يأمل أن يتبع مجموعه هذا مجموعاً آخر أو أكثر، ولكنه لم يُقدّر له أن يفعل.

ويؤسفنا أن الشاعر الغرّيد الذي تغنّى مواجده وتطلعاته، وبهر سامعيه بأسلوبه الفني وموسيقاه العذبة، كان مقلاًّ، أو عازفاً عن القول. فلم يبق بين أيدينا إلا قصائده التي نشرها في مجلة الرسالة، ومجموعه الشعري «كان شاعراً» وفيه قصائد مما كان نشره في الرسالة.

وإنا لنرجو أن ينهد باحث لجمع شعر الدكتور أمجد ليكون في متناول النقاد والباحثين والمتأدبين، يدرسونه ويدلّون على مواطن الجمال فيه.

---

(١) كان شاعراً: ٧.

٦- نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة للدكتور أمجد الطرابلسي (ط١/ ١٩٩٣م) ترجمة إدريس بلمليح.

يقول الدكتور أمجد مؤلف الكتاب في مقدمة الطبعة العربية: «هذا الكتاب – في أصله الفرنسي بحث جامعي تقدم به مؤلفه إلى جامعة السوربون في باريس، ونال به درجة الدكتوراه بعد مناقشته في اليوم السادس من كانون الثاني من عام ١٩٤٥».

وصدر الكتاب بالفرنسية في سلسلة منشورات المعهد الفرنسي بدمشق عام ١٩٥٦ ثم قام بترجمته إلى العربية الأستاذ إدريس بلمليح، وطبع بالدار البيضاء – المغرب.

ويقول الدكتور أمجد في مقدمة الطبعة العربية أيضاً: «والكتاب، على كونه الآن وثيقة عتيقة، أولُ بحث منظم في بابه، ولم يزل في وسعه أن يفيد المعنيين بدراسة الشعرية القديمة، أو بالدراسات المقارنة».

وفي الحق أن الدكتور أمجد قدّم بدراسته نظرة جديدة تأخذ بيدنا ونحن ندرس كتب التراث التي تناولت النقد الشعري.

٧- الصاهل والشاحج للمعري

نشر الأستاذ الدكتور أمجد، رحمه الله، مقالة في مجلة المجمع (مج٤٩، ج٢ ص ٢٥٤-٢٩١/ نيسان ١٩٧٤م) تحدث فيها عن رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري. وذكر في مطلعها أن مجمع اللغة العربية بدمشق رغب إليه منذ مدة أن يقوم بتحقيق رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري، وقدّم إليه صوراً لمخطوطتين ثمينتين من هذا الكتاب تضمهما الخزانة الملكية في الرباط. ثم أشار الدكتور أمجد إلى ما لقيته هذه الرغبة في نفسه من استجابة لما يشدّه إلى أبي العلاء من اهتمام ومحبة، وانه عكف على دراسة الكتاب وتحقيقه.

وهو يقدّم إلى محبي أبي العلاء حديثاً عن الكتاب بعد أن أوشك أن ينتهي من عمله.

كان ذلك في شهر نيسان سنة ١٩٧٤م، وفي إحدى زياراته إلى دمشق بعد ذلك أطلعني على نسخة كتاب الصاهل والشاحج، وقد أنجز تحقيقها إلا مواضع قليلة.

ومرت الأيام تلو الأيام، ونحن نترقب وننتظر، وها نحن أولاء في مطلع عام ٢٠٠١م ولا نعلم علم هذه النسخة، وما مصيرها!![1].

يطيب لي في ختام كلمتي أن أتحدث الحديث الوجيز عن الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي في مجمع الخالدين.

لقد انتخب مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق في جلسته التي عقدها يوم السبت (٢/ ١٢/ ١٣٧٩هـ = ٢٨/ ٥/ ١٩٦٠م) الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي عضواً عاملاً فيه خلفاً للأستاذ محمد البزم.

وصدر قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة ذو الرقم ٥٧ تاريخ ١٤/ ٢/ ١٩٦١ بتعيين الدكتور أمجد الطرابلسي عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية.

وتأخر موعد استقباله في المجمع لشواغل كثيرة. ثم دعا المجمعُ لاستقبال الأستاذ الطرابلسي في جلسة علنية عقدها عشية يوم الخميس (٣/ ٨/ ١٣٩١هـ = ٢٣/ ٩/ ١٩٧١م)، وافتتح الجلسة رئيسُ المجمع الأستاذ الدكتور حسني سبح. ثم ألقى الدكتور شكري فيصل عضو المجمع خطاب الترحيب بالأستاذ الدكتور الطرابلسي، فكان خطاباً جامعاً ممتعاً، فصَّل فيه القول، وأتى على أبرز ما قام به الدكتور أمجد من أعمال. ثم ألقى الدكتور أمجد خطابه متحدثاً عن سلفه الأستاذ

---

(١) يحسن الإشارة إلى أن رسالة الصاهل والشاحج قد نشرت بتحقيق د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ (دار المعارف بمصر، ط٢/ ١٩٨٤م).

محمد البزم، فكان خطاباً تجلى فيه ما عرف به الأستاذ الطرابلسي من رقة وعذوبة ومحبة ولطف، فقد التمس في بدء كلمته من روح سلفه محمد البزم قبول صادق عذره لتأخره، ثم ذكر بأسى وخشوع ومودة ثلاثة من أصدقائه المجمعيين الذين طوتهم المنون، وتحدث عن صلته القديمة بالمجمع الذي كان يقع على طريقه بين الدار والمدرسة، فكان يعرج على منابعه الثرّة كلما سنحت الفرص، واستعاد ذكرياته عن المجمع واحتفالاته، وصور بعض المحاضرين فيه. وكان أوضح تلك الصور مشهد الحفل الذي أقامه المجمع (عام ١٩٢٩م) تكريماً لشاعر النيل حافظ إبراهيم، وبصحبته يومئذٍ الشاعر خليل مطران.

ثم تحدث عن سلفه الأستاذ البزم، فذكر كيف أنه قارب سن العشرين وهو لا يعلم من القراءة إلا بعض سور قصار من القرآن الكريم. وأخذ يفصل أمره، ويبين الطريق الصعبة الشاقة التي سلكها في متابعة الدراسة، والمطالعة الجدّية القاسية التي أخذ بها نفسه حتى بلغ من العلم والمعرفة، وأصبح من كبار العلماء في علوم العربية، وإحاطتِه بتراثها، كما برّز في قول الشعر حتى عُدّ من الشعراء المجيدين.

وقد وفّق الدكتور أمجد فاطلع على مخطوطة كتابه «الجحيم» الذي تناول فيه الأستاذ البزم النحاة، فنال من أساليبهم الملتوية في تآليفهم، وسفّه آراءهم، ونَقَل فِقْراتٍ منه توضح طريقته في النقد، وبيّن أن جلَّ اعتماد البزم فيما ذهب إليه مقتبسٌ من أقوالٍ للمعري في لزومياته. ثم أثنى على منهجه في تشجيع طلابه على المناقشة، والإفصاح عن آرائهم، معزّزاً لديهم الثقة بالنفس. وبعد أن أفاض في ذكر البزم المعلم الذي طبعه على عشق العربية ونشّأه في علومها، التفت إلى الحديث عن البزم «الشاعر الذي ملأ أسماعنا وشبابنا خلال الربع الثاني من هذا القرن»، ورأى فيه شاعر الإباء والتمرد، وأتى بنماذج من شعره الجميل، وفصّل في ذلك وجوّد.

كان الأستاذ الطرابلسي يحبُّ المجمع ويجلّه، ويقدّر له جهوده في خدمة العربية. يقول: «وكيف لا أعتزُّ بالانتساب إلى مجمعٍ له في عنق كل عربيّ فضلٌ، وفي كل ندوات العربية ذكرٌ، أما أنا فقد كان لي هذا المجمعُ منذ تفتحت عيناي على أدب العرب، وتمرّس لساني بلغة العرب، وطناً في وطن، وأهلاً إلى أهل»[1].

لم يُتح للدكتور الطرابلسي أن يشارك في أعمال المجمع مشاركة فعالة، فقد كان يعمل في المغرب، وقد رغب إلى المجمع أن يسمح له بالتغيب عن جلساته طوال إقامته في المغرب للتدريس في جامعاته فأذن له.

ولكنه ظل على صلة بالمجمع لم ينقطع عنه. وكان حريصاً في أثناء زياراته لدمشق على زيارة المجمع، والاتصال بزملائه المجمعيين، يطّلع على ما يقومون به، ويشاركهم في مباحثهم والقضايا التي يطرحونها، ويبادلهم الرأي.

وبعدُ، فما زالت صورتُكَ أمامي، أيها الأستاذ الجليل، وأنت تحدثني، وقد لقيتك في المغرب، عن الحزن الشديد الذي حزبك على وفاة صديقك الأعز الدكتور حكمة هاشم[2]، وتنشدني قصيدتك على قبره، وتذكر الغربة القاسية القاتلة التي شملتكما معاً، وكأنك توحي إليّ أن قدركما واحد، وأن مصيرك مصيره. وها أنا ذا أفتح كتابك: «كان شاعراً» فتواجهني قصيدتك نفسها: «غربتان» تقدم لها بقولك

على قبر الصديق حكمة هاشم
وكنا اغتربنا معاً ثلاثين عاماً
ثم مات غريباً في باريس عام ١٩٨٢

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٤٧، ج١، ص١٩٣.

(٢) كان الدكتور حكمة هاشم رئيساً لجامعة دمشق وعضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي، انظر مجلة المجمع، مج ٢٩، ج٣: ٤٤٥-٤٦٧، مج٥٩، ج ٣: ٦٣٤-٦٥٤.

وهذه هي القصيدة، وإني أنشدها لأنها تُفصح عن إحساسك العميق بالغربة، وتطلُّعك الدائم إلى دمشق التي أحببتها وأحبتك الحب العميق:

أتيـت يـا صـديقُ أبكـي وُدَّكْ[1]
أذكـر عهـدي هاهنـا وعهـدَكْ
أبكـي علينـا لا عليـك وحـدَكْ
هـذا مصـيري يـا أُخـيَّ بعـدَكْ
من يا تُرى، متى قصدتُ قصدَكْ
يـذكر لحـدي أو يـزورُ لحـدَكْ

* * *

كنـا نقـول: غربـةٌ	**يومـاً لهـا انقضـاءْ**
ثـم نعـود حيث ننسى	**البعـدَ والشـقاءْ**
ونلتقـي في حيِّنـا	**أهـلاً وأصـدقاءْ**
هـا هـي ذي تصـرّمت	**وانكشـف العـماءْ**
مـن بعـد غربـة الحياة	**غربـة الفنـاءْ**
وهـذه يـا صـاحبي	**لـيس لهـا انتهـاءْ**

رحمك الله الرحمة الواسعة، وأسكنك فسيح جناته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً

لازال مسـكٌ وريحـانٌ لـه أرجٌ ... على صداك بصافي اللون سلسالِ

(١) كان شاعراً: ١٤٧-١٤٩.

كلمة الأستاذ الدكتور محمود السيد

وزير التربية

أيها الحفل الكريم

إذا كان عضو مجمع اللغة العربية الراحل الشاعر المرحوم بدوي الجبل يقول:

ورود الربا بعد الربيع بعيدة ويُدنيك منها في قواريره العطر

فإنّ السيرة العطرة لأستاذنا الراحل أمجد الطرابلسي تبقى قريبة إلى النفوس، متجذرة في أعماق العقول والقلوب، لأنها زاخرة بكل القيم الخيرة والسمات الإيجابية النيّرة.

ولئن كان جثمانه قد دفن في أرض بعيدة إنه مقيم في وطنه ما أقام قاسيون. وستبقى ذكراه العطرة تملأ النفوس بأريجها الفواح وشذاها المنعش، لا بل إن أي قارورة عطر مهما تكن نوعية عطرها لا يمكن أن تصل إلى روعة عطر السمعة المعنوية التي تعطي لصاحبها عمراً ثانياً ومجداً خالداً ذلك لأن الكلمة لا تموت، إنها في البدء كانت وستبقى ويبقى الذكر للإنسان عمراً ثانياً.

ألا ليت من تستهويهم الدنيا بمغرياتها يعتبرون ويتفكرون ليدركوا أن العطر المعنوي للإنسان إنما هو أسمى شيء في هذا الوجود، وأنّ الحرص عليه نزوعاً وسلوكاً وأداءً، إنّما يقي صاحبه من الانحراف والزلل، ويمنحه مكانة لا تعادلها كنوز الأول.

يرجع عهدي بأستاذنا الراحل إلى عام ثمانية وخمسين وتسع مائة وألف، وهو عام خالد في نفوسنا، عام قيام الوحدة المباركة بين سورية ومصر، عام تحقيق حلمنا

العربي في قيام أول وحدة عربية في تاريخنا المعاصر، في ذلك العام كنت قد حصلت على الشهادة الثانوية العامة، وتقدّمت إلى مسابقة بغية إيفاد عدد من المبعوثين إلى الاتحاد السوفييتي آنذاك للتخصص في الأدب الروسي، وكنت في عداد الناجحين وقد أرسلوا ثلاثة، وكان ترتيبي الرابع بين الناجحين، فلم يكن لي حظ في الإيفاد فتوجهت إلى وزير التربية والتعليم في الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي الذي استقبلني- رحمه الله- في مكتبه بالوزارة أحسن استقبال لم يكن يحلم به شاب في الثامنة عشرة من عمره، شرحت له وضعي، وأصغى إليّ بكل جوارحه، فأشار علي أن أسجل في جامعة دمشق، وأكمل دراستي الجامعية وتابع قائلاً «إن المستقبل أمامكم أيها الشباب». ولما ذكرت له أن حالتي المادية لا تساعدني على الدوام في الجامعة، قال لي: إنّ بإمكانك أن تسجل في كلية الآداب والدوام فيها غير إجباري وإن الثقافة تنبع من الداخل، فما عليك إلا أن تقرأ كثيراً وتبحث في المراجع وأمهات الكتب معتمداً على نفسك، وأن تمحو هذه السحابة من الحزن والكآبة من مخيلتك فالتشاؤم يمثل نظرة قاصرة لا أريد لها أن تقودك في سديم الحياة، وستكون بمشيئة الله من المتفوقين.

وبعد مضي أربع سنوات من دراستي الجامعية وجمعي بين الوظيفة والدراسة حصلت على الإجازة في اللغة العربية وآدابها بتفوق.

وأعلنت وزارة التربية عن بعثة للحصول على الماجستير في البلاغة العربية القديمة، ثم الدكتوراه في النقد باسم جامعة دمشق، وكانت الجامعة آنذاك ما تزال بإشراف وزارة التربية لعدم افتتاح وزارة التعليم العالي بعد، والتي تم افتتاحها بعد قيام ثورة آذار المجيدة، ثم رعاها ورعى العلماء فيها وفي أخواتها من الجامعات السورية قائد الحركة التصحيحية المباركة الرئيس الخالد حافظ الأسد.

وتشاء الظروف أن تعلن نتيجة المسابقة وأن أكون الناجح الأول والأصيل فيها، وكان ذلك حلماً بالنسبة إلي أن أكمل دراساتي العليا ببعثة دراسية، وأن أحصل على الماجستير في البلاغة العربية القديمة ثم الدكتوراه في النقد باسم جامعة دمشق، وبعد أن تسلمت قرار الإيفاد وهيأت نفسي للسفر، ألغيت البعثة وعندما قابلت وزير التربية آنذاك وكان قد تسلم الوزارة عدد من الوزراء بعد أستاذنا الراحل، كان جواب الوزير الجديد:

- إنّنا لسنا بحاجة إلى بعثات أدبية ولا في العلوم الإنسانية، إننا بحاجة إلى بعثات في العلوم البحتة والتطبيقية.

وعبثاً حاولت الدفاع عن وجهة نظري وأنّ هذين النمطين من الدراسة ليسا متناقضين أو متعارضين وإنما متكاملان ويكونان حلقة واحدة يدور فيها الوجود الإنساني عقلاً وروحاً، حساً ووجداناً، واقعاً و ذاتاً.

كما دافعت عن حقي في إكمال دراساتي العليا نتيجة لتفوقي، وأنّ الدرجات التي حصلت عليها إنما هي نتيجة لجهودي وسهري الليالي، إلا أن الجهود في إقناعه وثنيه عن وجهة نظره باءت كلها بالإخفاق.

فتذكرت لقائي أستاذنا الراحل أمجد الطرابلسي وحدبه عليّ ونصائحه القيمة وأسلوبه التربوي وتواضعه تذكرت كيف:

حملت يتمي وحلمي وارتميت هنا   على ذراعيه كان الأهل والوطنا

وقارنت بين الرجال إذ ليس كل الرجال يدعى رجالاً، قارنت بين عقليتين إحداهما تبني الوطن في ضوء نظرة استشرافية شمولية واسعة، والثانية تهدم في ضوء نظرة متزمتة ضيقة، إحداهما تربوية تشجع القدرات والمواهب وتعززها، وتحوط

أصحابها بالرعاية والمحبة والثناء، فتزيد من تقديرهم لذاتهم وتفتح أمامهم أبواب النجاح، والثانية تحبط القدرات وتعمل على وأدها.

وآليت أن أكمل دراساتي العليا معتمداً على الذات ومتخطياً الصعاب، ومتسلحاً بإرادة قوية، متخذاً من كلمات الوزير الراحل الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي صوى تهديني في طريقي الصعب والشاق والطويل.

كيف يمكنني أن أنسى مواقفك التربوية يا أستاذنا الراحل وأنت تدعوني إلى التعلم الذاتي وإلى التفاؤل في الحياة؟! وستبقى كلماتك الخالدة محفورة في العقل والوجدان مادمت على قيد الحياة وستبقى سيرتك حياة لا نفاد لها.

مــوت النقــيّ حيــاة لا نفــاد لهــا   قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء

– ولقد مررت بجامعة محمد الخامس في المغرب عام خمسة وسبعين وتسع مائة وألف، وكنت في ذلك العام أدرّس في جامعة وهران بالجزائر، وأحببت أن أزور جامعة محمد الخامس في الرباط وتمت لي زيارتها صيف ذلك العام، وكنت أطير شوقاً لرؤية أستاذنا الذي كان يدرّس في تلك الجامعة، ولسوء حظي لم ألقه بسبب وجوده خارج المغرب في ذلك الحين، واجتمعت بنفر من طلاب الجامعة وبعد أن عرفوا أنني من سورية، بادروني بالسؤال:

– هل تعرف الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي؟

فأجبتهم قائلاً:

ومن منا لا يعرف الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي، إنّه علم من أعلام الفكر ورجالات الثقافة على الساحة القومية، إنه عالم فاضل تعتز به الأمة.

ولكم أحسست بالافتخار عندما تحدثوا بإسهاب عن علمك الغزير وثقافتك

الواسعة ومناقبيّتك الرائعة، وأنّ لهم الشرف في التتلمذ على يديك الكريمتين أيها الراحل الكبير، يا من كنت الوجه المشرّف والمشرق لبلادك في كل مكان تحل فيه. حملت وطنك في أعماق وجدانك وجسدته في سلوكك وإنجازك، إخلاصاً في العمل وتفانياً في أدائه وحرصاً على كل القيم الوطنية النبيلة والمثل العليا الرفيعة، فكنت الممثل الحق لوطنك انتماءً أصيلاً وعلماً غزيراً وخلقاً كريماً.

رحمك الله رحمة واسعة بقدر ما أعطيته لأمتك من مجد ثقافي ومعنوي تعتز به الأجيال وأشهد أن ما أعطيته كبير وكبير. ومن حقك علينا– وهذا أضعف الإيمان– أن نسعى إلى تسمية إحدى المدارس في دمشق باسمك أو أحد المدرجات الجامعية في كلية الآداب تقديراً لفضلك ووفاءً من عارفي قدرك وترسيخاً لسيرتك العطرة في الأجيال المتعاقبة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الأستاذ الدكتور عادل العوّا

ما أمضّ الذكرى السعيدة في حاضر حزين.

وهكذا ذكراك يا أمجد: أيها الرفيق الصديق العزيز.

لقد حبانا الله بالتذكر. والتذكر ملكة إنسانية مبجَّلة، فيها استرجاع الماضي وتمثلُه المتجددُ في النفس، بل هو حضورٌ جديد لواقع غاب. ومنه كذلك ابتكار الحاضر بتأليفه المتكرر، وتركيبه العتيد، ليصبح ما انقطع موصولاً، وما انصرم باقياً، وما فات خالداً أبداً.

على هذا النحو أيها الأعزاء أتحدث إليكم عن ماضٍ حلو يربطني بالراحل الغالي الحبيب الدكتور أمجد، وهو ماضٍ سعيد أحمل عنه كل فخر واعتزاز.

إنني أحدثكم عن ماضٍ سعيد، وفي قلبي أسىً يُضرِمه فقدُه، وأملي أن أحظى بمشاركتكم الإحاطة ببعض ذكريات انتزعتها من صلتي بالدكتور الماجد الأمجد، وسعادتي بذكرها غامرة لولا أن مضمونها قد خلا، وأوبتُها محفوفة بالحوقلة والتجلد الكئيب.

سمعتم بلا ريب التأكيد الذائع القائل: جارُك أعلم الناس بحالك.

الوقت: الساعة الواحدة والنصف ظهراً بالتوقيت المحلي من عام ١٩٣٩، بفاصلِ أشهر معدودات على اندلاع الحرب العالمية الثانية.

المكان: شارع جوردان، من الحي الرابع عشر من مدينة باريز، حيث المدينة الجامعية بأبنيتها السامقة، وحدائقِها المنبسطة الشيقّة، ومحطة قطارها النظيف، وهدوء جوها المرح.

الصورة: شابان وسيمان ناشطان لم ينل من هامتيهما صلع ولا شيب. إنهما يغادران كلاهما غرفته المجاورة لغرفة صاحبه، في الموعد المحدَّد، ويهبطان معاً السلّم من الطابق الرابع المشترك، من مبنى «دار المحافظات»، ويتجهان بخطىً وئيدة شطر «المنزل الدولي»، قاصدين مطعم الطلاب والطالبات، الخاص بالجامعيين والجامعيات، وحيث الغِذاء المقبول، والخدمة الذاتية، والمَقصف الممتع، والثمن الزهيد، والجو المريح.

إنهما يتقدمان بثقة وحبور، لا ريث ولا عجل، يتكلمان ولا يكادان يصغيان، ولكنهما يترنمان ويَطربَان شَجواً مرة جديدة، تلو مرة، بأنغام كوكب الشرق السيدة أم كلثوم: على بلدي المحبوب.. وديني..

هذا طَرَف من نظام حياتنا في المدينة الجامعية بباريز. وقد كنا نصطحب غير مرة في الذهاب إلى الحي اللاتيني، بقطار الـ (سو)، والإياب منه، إذا توافقت أوقات المحاضرات في السوربون، ونصطحب بوجه خاص أيام العطل والآحاد، بحثاً عن مطعم غير جامعي، أو مقهىً مناسب لتزجية بعض الوقت، والفوز بقَدْرٍ من الاستجمام، ومحورُ اهتمامنا ينصّب على دقائق من موضوع حركة التأليف والنقد العربي بمثل انصبابه على صعاب الفرنسية لغةَ – أداةٍ معرفية في الفلسفة وعلم النفس. بيد أن اهتمام كل منا باختصاصه لم يَحُل البتة دون اهتمامات علمية مشتركة. آية ذلك بعض المحاضرات الجامعية التي كنا نشترك في الاستماع إليها طمعاً في الاستزادة من المعرفة والثقافة والتنوير. ومثلاً محاضراتُ الأستاذ (مورنه) في الأدب والفكر، وبحثُه الرائعُ عن (روسو) و(مونتسكيو) وأمثالِهما. وقد كان يلقيها في بهو المدرَّج الكبير، لشدة ازدحام الحضور... وأحسَب أن لقاء الطالب أمجد بقرينة الغد الطالبة المتميزة لطفاً وأناقة وتهذيباً، أعني الآنسة (مونيك)، إنما نما وترعرع في تلك المحاضرات. وكان لي، ولبعض الزملاء السوريين، متعةُ المشاركة في الحفل المقام في ضاحية (انيه ر)، بمناسبة

الزفاف... وأشهد أن خصال هذه الأسرة الطيبة كانت رائعة في باريز، وظلت رائعة في دمشق، وفي حي عين الكرش، حيث منزلها الدمشقي، بمثل روعتها الفائقة حيثما قصدت رحاب الشرق والغرب.. تبع الظروف..

طال أمد الحرب العالمية الثانية. وحفلت تفاصيلها بأحداث جسام، وانقطع اتصال الطلاب السوريين بذويهم.. ولكن مفازع القتال العالمي لم تحجب عنهم واجب النضال لخدمة أمتهم العربية. وكان من ذلك اهتبالُهم فُرصاً عدة أتاحتها صنوف مظاهرات قومية كان إسهام الدكتور أمجد فيها إسهاماً أمثل يتجلى في شعوره الوطني المتقد بجاهزية تامة في جميع المناسبات... وما يوم «التعاونية» ببعيد، حيث تكاتف الطلاب العرب، من سوريين ولبنانيين ومصريين.. إلخ مع العمال العرب ولا سيما الأفارقة التونسيين والمغاربة والجزائريين من المقيمين في باريس، لمنع محاضرات صهيونية في قصر (الموتواليته) الشهير، إلى أن اضطرت شَرِطة باريس إلى إيقاف الحفل، وكان لنا ما هَدَفنا إليه..

وضعت الحرب العالمية أوزارها، وعاد الزوجان طرابلسي مع العائدين، وواكب ذلك بزوغُ فجر الجلاء عن سورية، وبدءُ العمل الجاد في بناء الدولة بمختلف مؤسساتها الوطنية؛ ورَسَم العلاّمة ساطع الحصري خطوط النهضة التعليمية، وأُحدثت في الجامعة السورية كليات جديدة، وفي طليعتها كلية الآداب إلى جانب كلية العلوم، وأُتيح لطلاب هاتين الكليتين اللقاء في إطار مؤسسة جامعية جامعة بجناحيها شمل أساتذة المستقبل من معلمين وموجِهّين تربويين، فكان من ذلك المعهد العالي للمعلمين، وقد أوسدت إدارته إلى الأستاذ الدكتور خالد شاتيلا، كما أُوسدت إليه في الوقت ذاته عمادة كلية الآداب.

مضى على هذا المنوال العام الجامعي الأول. وما كاد أن ينتهي حتى نُقل الأستاذ شاتيلا للعمل في وزارة الخارجية سفيراً، فأُسندت عمادة كلية الآداب إلى

الدكتور أمجد، وعُهد إلي بإدارة المعهد العالي للمعلمين، وبات من اللازب ضرورةُ إنجاز مناهج الدراسة وخططها في هاتين المؤسستين. وقد أخذ العميد أمجد وصَحبُه بطَرَف كبير من نظام التعليم في السوربون، وقَبَسنا بوجه خاص مبدأ الشهادات السنوية في إطار الليسانس أو الإجازة، كما متحنا من تفاصيل نظم جامعة عربية مصرية ترجيحاً. ورأيتُ في المعهد العالي الاستئناس خاصة بنظم أمريكية وتكييفَها مع حاجات المجتمع العربي السوري آنذاك. وأحسَب أن سمات تلك المناشط مازالت إلى اليوم بادية للمُمعن كالوشم في ظاهر اليد..

لقد كان عمل الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي في جامعتنا عملاً رائعاً مثمراً خِصباً، تؤيده آثاره العلمية القيمة وإسهاماته الحاذقة الرفيعة في إعداد صفوة من النوابغ النبهاء في مجالات الأدب واللغة والنحو من طبقة زميلنا المجمعي المرحوم الأستاذ أحمد راتب النفاخ، وبمثل مشاركة الدكتور أمجد في أعمال مؤتمر المستشرقين في ميونيخ عام ١٩٥٧، وقد صحِبتُه ممثلَين كلية الآداب والجامعة السورية في جو انفتاحنا العالمي على شؤون البحث وتقدمه في أي مكان.

أشهد، في ختام هذا الجانب من القول، بأن قلب الدكتور أمجد كان، وظلَّ، ولِعاً بالتعليم الجامعي، متعاقبَ الزيارة لقسم اللغة العربية، بعد مغادرته الجامعة للنهوض بمسؤوليات إدارية وسياسية متميزة. وقد لَمَستُ ذلك منه، وزيّنت له مرةً أن يُبقي على صفته الجامعية رسمياً، وهو الوزير آنئذٍ، فأجابني واثقاً بقوله: مَن جعلني وزيراً يقدر على إرجاعي إلى كلية الآداب. بيد أنه لم يعد أستاذاً هنا. ولكنه أصبح أستاذاً عزيزاً مكرَّماً هناك، في الرباط من المغرب الأقصى. ولا إخالني أغلو إن قلتُ ما قاله هو نفسه واصفاً روح التعليم الجامعي في نظره الثاقب، وحُقّ له:

«السلف، لا ريب، موضعُ احترامنا، وآثارهم موضع اعتزازنا، وويل لأمة لا تطبع أبناءها على هذا الاحترام، ولا تعوّدهم هذا الاعتزاز. ولكن احترامنا السلف يجب أن يكون احترام الأحرار، واعتزازَنا بآثارهم يجب أن يكون اعتزاز الأعزة. فإذا انقلب الاحترام تعفيراً للجباه، أو غدا الاعتزاز جُثواً على الرُكَب، كان الشللُ فالجمود فالموت. وسيكون من حسن حظ حياتنا الفكرية اليوم وغداً أن يسودها ما ساد تاريخنا الفكري بالأمس من إجلال للماضي وللماضين، مع تبصر فيما اعتور الماضي من قوة ووهن، وعلمٍ بما في أقوال الماضي من صواب وخطأ، وأن يدعم كل هذا إيمان متفائل بقدرة الإنسان على أن يتفوق على نفسه في كل لحظة. فهذا هو طريق تقدم البشرية، ولا طريق سواه»[(١)].

انفصمت عرى الوحدة السورية المصرية، التجربة المعاصرة الأولى. وقد كان الدكتور أمجد شديد التعلق بها، حامداً آثارها، متغاضياً عن تعثرها، كما كان شغوفاً بشخص الرئيس جمال عبد الناصر، مؤيّداً أفكاره وأعماله. ولما وقع الانفصال، وعاد الدكتور إلى دمشق، سمعته يتحدث بأسى ويقول: كنتُ مع نفر من الزملاء السوريين في حضرة الرئيس عبد الناصر لما حُمل إليه الخبر، فوجم برهة من الدهر، ونحن صامتون من حوله، إلى أن بدا له فأقرَّ الحادث، وحكم بتحاشي سفك الدماء.

كان الدكتور أمجد يكبرني قليلاً بمثل سبقه أخاه أسعد، زميلي الغالي، وصديق دراستي في مكتب عنبر.

كان أسعد إنساناً متميزاً بخصال رفيعة، وفضائل نادرة. كان شديد التفاؤل، ينظر إلى وقائع الحياة نظرة معمَّر حكيم عاصر الدهر وعجم عوده، وخبر التجارب

---

(١) خطاب د. أمجد الطرابلسي في حفل استقباله – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. المجلد (٤٧) الجزء (١) دمشق ١٩٧٢.

والمحن، وسما فوقها فهزئ منها ولم تُرهقه جزعاً ولا توجساً. هكذا كان منذ صداقتنا في عنبر. وهكذا وجدتُه بعد أن جُرح وهو ضابط في أولى معارك النضال السوري لقمع العدوان الصهيوني في حدودنا الجنوبية.

عدته للاطمئنان عنه في المشفى العسكري القابع عندئذٍ في ذروة الربوة. كان يعي أن رصاصة العدو كادت أن تقضي عليه لدنوها من قلبه قاب قوسين. وإذا هو يؤكد ضاحكاً بشجاعة الواثق أنه سيعود إلى المعركة فور أن تتاح له فرصة القتال من جديد.

من هذا الجو الوطني نعرف خاصة البيئة المعنوية التي أنجبت نضال الدكتور أمجد وكفاحَه الجهل والتخلف، وقد رقي بجهاده التعليمي والسياسي إلى مكرُمَة النشاط القومي الصادق، وهو الأديب الشاعر الوزير، المتقدُّ الذكاء، الغزير المعرفة والواسع العلم.

لقد كان أمجد مفعم الشعور بالإباء، نزِقاً ولكن بحصافة؛ سريع الارتكاس، حاسم القول، حازم الفعل، صريح الرأي، مخلص العمل، سبّاقاً إلى الفضل، يحسن تقدير الآخرين، فيتغاضى عن قصور العاجزين، ويتشددُ في ردع الأكفاء القادرين. ذاكم دأبه في حياته الاجتماعية وحياته الرسمية على نحو سواء. ولستُ أزعم أن في وسعي الإلمامَ بذكر كل فضله في هذا المقام. وحسبي أن ألمع إلى نبذة من آرائه أقتطفها من كتابه القيّم «محاضراتٌ عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام»:

لم يشأ الدكتور أمجد استعمال لفظة سورية في هذا العنوان، مرجّحا كلمة الشام لأن لفظة سورية تمثل منطقة مصطنعة الحدود، فرضها الأجنبي. بينما كلمة الشام لها مدلولها الجغرافي الواضح، قديماً، وحديثاً، ولأن أكثر الشعراء في هذه المحاضرات لا ينظرون إلى الحوادث السياسية التي كانت تجري في قطرهم في إطار محلي. بل يَخرجون بها إلى إطارها العربي الرحب. ونحن نراه، فوق ذلك، يضيف عنصر العروبة إلى عنصر الحماسة ويقرِنهما معاً، كما يحرُص على إبراز الفكرة القومية والوحدة العربية حيثما يتسع المجال.

لقد أعلمتنا فصول هذا الكتاب الكثير المفيد عن شعر العروبة الحماسي منذ جذورِه البعيدة إلى أيام النهضة الحديثة، والبعث الجديد؛ وأبانت نضال شعرائنا في المعارك القومية، وتمجيدَهم بطولات الأبطال والشهداء، وتنديدَهم بمظالم المستعمرين الطغاة، وتعلقَهم الراسخَ بالوحدة العربية المنشودة، فقرأنا بذلك قصائد (بدوي الجبل)، وأشعار (خير الدين الزركلي) و(شفيق جبري) و(سليمان العيسى) وأمثالِهم، وقد أجاد المؤلف اختيار ما اختار من روائع ذاكم الإبداع، وأتاح لنا قراءة قَبَس من قصيدة (خليل مردم بك) بعنوان: «لِوجه الوَحدة»، وقد سخر فيها من الدويلات المصطنعة التي خلقها الأجنبي بتقطيع أوصال بلادنا بالفِتر والبُصَم، وكأنه خياط يُعمِل مِقصه في رقعة من النسيج. يقول الشاعر:

فـيم التقـاطع، والأرحـامُ واشـجة — والـدار جامعـة، والملتقـى أَمـم؟
اللهُ في قَطْـع أرحـام، وفَصـم عُـرىً — عهدي بها، وهي وُثْقَى، ليس تنفصم

* * *

بلادُنـا، ويـد التقسـيم تَعلُقهـا — كأنهـا رقعـةٌ ينتابهـا جَلَـم[1]
أكُـلُّ حـاضـرةٍ دارٌ لمملكـة — أبعـادُ مـا بيـنهن الفِـتر والبُصَـم[2]

* * *

قالوا: وفي الـدين بـدٌّ دون وَحْـدتنا — إلى متى باسم هذا الدين نختصم؟
لـئن أصروا عـلى أهـواء أنفسـهم — لا الدينُ يبقى، ولا الدنيا، ولا الشيم

رحمك الله يا أمجد. لقد وعيتَ الحاضر، وأخلصت للخلاص، وأبلغتَ الرسالة: علّمتَ وعَملت، أنرتَ وأسهمت. ما أمجدَك حياً، وما أعزَّك خالداً.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) الجَلَم: المقص.

(٢) البُصم: ما بين طرف الخنصر إلى طرف البنصر.

كلمة الأستاذ الدكتور عبد الله عبد الدائم

باسم أصدقاء الفقيد

من أقوال المتصوفة:

«**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**».

وأحر بهم أن يقولوا: «**الناس نيام، فإذا مات كبراؤهم وعلماؤهم انتبهوا**»، انتبهوا إلى ما نقص من أمور زادهم ومعادهم.

على أني، لست ممن يقولون «ما ترك الأول للآخر» ولكني أقول إن لكل عالم أثراً يندّ عن المحاكاة، وإن لكل فارس صولة لا يشبهه فيها سواه.

وفارسنا الذي فقدنا كنز دفين لا يجود بخيره إلا إذا نبهته الذكرى، ذكرى أصدقائه وعارفيه وطلابه، يمتحون منه ويغدقون.

بل هو في حياته ومماته عطاء صامت، فإذا أنت أفلحت في إنطاقه تدفق منه الثراء وفاض. ذلكم أنه عرف محراب العلم حقاً وأوى إليه، ومن جاس سدة العلم تهيبه وخافه ولم يتجرأ عليه.

لن أقول فيه قولة الجاحظ في وصف بليغ:

«**وكان يرى صامتاً فإذا قال بذّ القائلين**» ولا أعزي صحبي وصحبه بقول الشاعر العربي القديم:

خشاش الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلاة نزور

لا، لا أقول هذا كله في وصفه، فأنا لا أتفق مع من تقالّوا عطاءه. فلقد كان قليله كثيراً، وكان جواداً متخفياً، في صدقه وصداقته، في أحاسيسه ومشاعره ومثله العليا، وفي نتاجه الفكري والأدبي نفسه. وفي مجال هذا النتاج الأدبي، يروي الرواة

عنه أن أحد طلاب الدكتوراه عنده سأله يوماً: لماذا لم تؤلف كتباً؟ فأجاب بكلمات ثلاث: «**اخترت تأليف الرجال**» وفي رواية: «**طلابي هم كتبي**». ويااله من خيار صعب، يذكّرنا بقول شاعر جاهلي:

يبني الرجال وغيره يبني القرى شتان بين قرى وبين رجال

أو لم يشرف فقيدنا أثناء مقامه بالمغرب خلال لواذ ثلاثين عاماً (من عام ١٩٦١-١٩٩٠م) على أكثر من ستين رسالة دكتوراه وماجستير، سار ذكرها على الألسن وحملها الركبان، وكونت أجيالاً من الأساتذة والعلماء، دربوا على أساليب البحث العلمي الرفيع، وتمرّسوا بتقديس العلم والاستزادة منه دوماً وأبداً، وتسلّحوا بمفاتيحه وأدواته؟ ولعل شأنه في هذا شأن سقراط الذي نقش علمه وحقائقه في صدور تلاميذه، ودربهم على أساليب الكشف عنها وتوليدها بأنفسهم. وقديماً جاء في تراثنا: «العلم ما حوته الصدور لا ما حوته السطور، وما ضمه الصدر لا ما ضمه القمطر». ألم يكن السابقون من علمائنا «**يكرهون تشييخ الصحيفة**»؟

لقد كان همُّ فقيدنا أن يعلم طلابه كيف يتعلمون، مستمسكاً بأحدث شعارات التربية الحديثة بل المستقبلية، نعني العمل على إعداد إنسان قادر على أن يعلِّم نفسه بنفسه، لا إنساناً متعلماً.

وفي تراثنا من أقوال ابن قتيبة: «**يظل المرء عالماً ما طلب العلم فإن ظنّ أنه علم فقد جهل**».

ومما كتبه أحد طلابه القدامى في كلية الآداب بمدينة فاس، وهو بشير القمري، في الملحق الخاص الذي خصت به جريدة الاتحاد الاشتراكي المرحوم أمجد: «تعلمنا (منه) الصبر، وتعلمنا منه المجاهدة، وتعلمنا السفر والإبحار خلف رصيد وكنوز الأدب العربي القديم. . .

لقد كنا، ونحن بين يدي فقيدنا، نحس أننا في طقس احتفالي بالشعر والشعراء في الجاهلية والإسلام وفي العصور الأخرى، طقس يستحضر فيه أستاذنا الغالي النصوص والأخبار والشروح والتعاليق والهوامش، يستنطقها ويمحصها وينخلها ويلقي بها في أفئدتنا ووجداننا».

على أن ما هو أصدق من هذا كله، في تبين معنى العطاء في مجال الأدب والفكر عند فقيدنا، أن نسلكه في عداد البلغاء الذين يجتنبون فضول الكلام وحوشيّه، والذين بلغوا في قدرتهم على مطابقة اللفظ للمعنى حداً جعل كلامهم كالتوقيع على حد قول بلغاء العرب. ولعل خير ما نصفه به أنه مبدع لم يكن لعلمه فضلٌ على عقله، ولم يكن للسانه فضل على علمه.

ومع ذلك، حذار أن نظن أن أمجد الطرابلسي لم يؤلف ولم يكتب. فما وصلنا مما كتب أقل مما لم يصلنا. وما طبع من نتاجه في المغرب يؤكد لنا أن حظه من التآليف المكتوبة لم يكن قليلاً.

ولنذكر فوق هذا وقبل هذا أنه حين يكتب يتخير لمؤلفاته من الموضوعات، في معظم الأحوال، ما يتفق وقناعاته الفكرية ومواقفه، وما يتفق بوجه خاص مع إيمانه بالعروبة، تراثاً وفكراً ولغة. ولهذا وجه جل عنايته إلى اللغة العربية وإعجازها، وإلى التراث العربي ومظانّه، مشيداً دوماً بروعة اللغة العربية ودورها الأول في البناء القومي– فعلةَ المفكر القومي الرائد ساطع الحصري– ومذكراً بما قاله أستاذه: ماسينيون: «إن البعث الدولي للغة العربية عامل أساسي في إشاعة السلام بين الأمم في المستقبل» وليس من قبيل الصدفة أن يختار موضوعاً لأطروحة الدكتوراه التي حصل عليها من جامعة السوربون بباريس عام ١٩٤٥ «النقد الشعري عند العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري»، ولقد ترجمها إلى العربية الدكتور إدريس بلمليح

ونشرت الترجمة دار توبقال بالدار البيضاء. وليس من باب الصدفة أيضاً أن يكون من بواكير كتبه كتاب صغير جِرمه كبير جُرمه، نعني كتابه «نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب» الذي طبع بدمشق عام ١٩٥٤، ثم أعيدت طباعته بالمغرب.

وقد لا يذكر كثير من الباحثين محاضرة هامة له، تشهد على عمق همه القومي، عنوانها: «الأدب العربي بين الأدب القومي والإنساني» وقد لا يذكرون محاضرة أخرى بهذا الشأن عنوانها «اللغة العربية»، ومحاضرة فذة عن «شعر الشام والفكرة العربية خلال النصف الأول من القرن العشرين» ومجموعة من المحاضرات ألقاها في معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة عام ١٩٥٧ حول «شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام».

ولا عجب بعد ذلك أن يقول الدكتور إدريس بلمليح في تقديم الترجمة العربية لأطروحة الفقيد التي تولى ترجمتها إلى العربية:

«علمني الاعتزاز بالتراث العربي والإسلامي» ويوضح ذلك قائلاً:

«لقد كان رائدي في التعلق بهذا التراث وتذوقه رجلٌ عشق التاريخ العربي إلى حد التصوف، ولكن عشقه ذاك لم يكن انفعالاً متشنجاً أو انكفاءً على الذات التي تجتر وتعيد ما قيل سلفاً، بل هو عشق الباحث المتفتح والعالم الذي يضمن التوازن الحيوي والفعال بين مقومات الذات العربية والإسلامية، وبين معطيات الفكر والحضارة الإنسانية أياً كان مصدرها».

أما عشقه للغة العربية فيعبر عنه الأستاذ «نجيب العوفي» في الكلمة التي كتبها في الملحق الذي أفردته «جريدة الاتحاد الاشتراكي» للفقيد:

«وكان الرجل عاشقاً مدنَفاً للغة العربية، يهواها بقلبه ووجدانه، ويكلؤها بعقله وقلبه ولسانه».

ويشط القلم إن أردنا أن نتحدث عن اللحمة القوية عند فقيدنا بين القومية واللغة العربية، وأن نتحدث بوجه خاص عن إسهامه العملي المباشر في الدعوة إلى الوحدة العربية والنضال من أجل المبادئ القومية، وهو نضال كان لنا فيه، نحن أصدقاءه، جولات مشتركة معه طوال سنوات عديدة.

وقد قاده ذلك كله عام ١٩٦١ إلى مغادرة سورية حسيراً، يعتصر الأسى فؤاده، بعد أن تردّت الوحدة المصرية السورية وانفصمت عراها وكادت لها جموع الاستعمار والصهيونية ومن والاهما.

وهكذا ترك سورية إلى المغرب، ولعله كان يردد في قرارة نفسه قول الشاعر العربي القديم:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا　　　ألا تفارقهم فالراحلون همُ

لقد كان همّ صون الوحدة وبنائها على عمد راسخة يؤرقه كما يؤرقنا جميعاً آنذاك. وإن أنس لا أنس يوم تحدثنا في اجتماع لاتحاد الكتاب في سورية – وكنا عضوين فيه – في كثير من القلق عما بدأ يسري إلى وزارة التربية في بواكير الوحدة من سموم ودسائس وأفعال تهدد كيان الوحدة الغضّة الناشئة. وقد عزمنا أمرنا آنذاك على أن نبوح بهمومنا إلى وزير التربية. وكان الوزير كمال الدين حسين، الذي كنت أعرفه عن كثب منذ عام ١٩٥٦ يوم عملنا معاً في وضع اتفاق الوحدة الثقافية بين مصر وسورية والأردن. وهكذا كان لنا مع كمال الدين حسين حديث لا كالأحاديث في جرأته وصراحته، ظل يذكره طويلاً، ولعل طيفه راوده بشكل خاص عندما أخذت الوحدة الغالية تتردى وتوأد وهي بعد حيّة.

ومن أفضل ما يفصح عن مشاعر فقيدنا القومية القصيدة التي كتبها عام ١٩٤٢ عن فوزي القاوقجي. ومما جاء فيها:

أدنـــى منانـــا دولـــةٌ عربيـــة   شمساءُ ترأبُ صدعنا وتوحِّـد
يـرضى بهـا شـهداؤنا ودماؤنـا   وفخارُنا الأسمى الأعـزُّ الأتلـدُ

كما تفصح عن تلك المشاعر قصائده عن «بور سعيد» و«رصاص فتح» و«عدنان المالكي» وسواها. أو ليس هو القائل في قصيدة رائعة ألقاها في ٢ آذار ١٩٥٨، تمجيداً لقيام الجمهورية العربية المتحدة:

عَلَمَ الوحـدة يـا مجـدي في يـومي الجديـدِ
عَلَمَ الوحدة يا مجد غـدي يـا فخـر عيـدي
عَلَـمَ الوحـدة يـا حُلْـمَ رغـابي وشـبابي
إننـي أركـزك اليـوم عـلى شـمّ هضـابي

ومن أصدق وأعمق ما قاله في تلك الوحدة التي كان يخشى أن يفسدها كيد الكائدين أبيات قالها في الذكرى الثالثة لاستشهاد عدنان المالكي في نيسان ١٩٥٨، بعد شهرين من قيام الجمهورية العربية المتحدة:

هـذه الوحـدة كـم سـال عـلى   حُلْمها الرفّاف من جرح سَخيِّ
بـــرَّأَ الله لنـــا جوهرهـــا   ووقاهـا مـن شراك الأجنبـي

والحق، إن أهم ما يسم طباع الصديق أمجد وفكره، في آن واحد، الإباء والشمم. لقد كان منتصباً في وقفته ومشيته وتحيته، كما كان أشمّ شامخاً في أفكاره وقناعاته ومبادئه. ولعله في ذلك قد تشيّم أباه الذي كان ضابطاً في الجيش العربي خلال حكم الملك فيصل. وله في هذا الشأن مواقف وأقوال. منها محاضرة عن «الحرية والعبودية في الأدب» بل له في أشعاره القليلة التي كتب معظمها في ميعة الشباب (والتي نشرها في المغرب عام ١٩٩٣ المجلس القومي للثقافة العربيو

وعنوانها: كان شاعراً) إشارات بينات إلى طبعه الأدبيّ، وإلى استمساكه بالعزة والشمم والكرامة، وهي من أبرز خصال العرب في جاهليتهم وإسلامهم. ومما ورد في إحدى قصائده آنذاك:

أحب الجبال الشامخات كأنها ... على جبهة الدنيا تصول عواتيا

وفيها يقول:

وأحتقر الكثبان يرعشها الصبا ... ويفزعها الإعصار إن مر لاهيا
وتحملها الأرياح أنى توجهت ... ألا عيب في أسفارها وألاهيا

ويقول في هذا المعنى في قصيدة أخرى:

وأحتقر الأحرار يحنون هامَهم ... وليس عليهم سيّد أو مسيطرُ
إذا كان قلب المرء عبداً ورأيه ... فقل لي - هُديتَ الخير - ماذا تحرّرُ

على أن أمجد الأبيَّ الصُّلب الصليب، كان من أكثر من عرفت رقةً في الحواشي، ودماثةً في الطباع. كان سهلاً مَأْلَفاً محبباً ومحبَّاً لمن يأنس لديه الخير، ولاسيما من طلابه. فقد كان أمام محراب العلم جمّ التواضع، بعيداً عن ادعاء الإحاطة، يذكّر بالقول المأثور: «إذا ترك العالم قول لا أدري أُصيبَتْ مقاتلهُ».

ذلكم أن ديدن الفقيد كان دوماً هو العلم والاستزادةَ منه. ومازلت أذكر يوماً زرته فيه بمكتبه يوم كان وزيراً للتربية بالإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة. وحين قرأت في وجهه أمائر الأسى، بادرني قائلاً: إن منصب أستاذ الجامعة يعدل عندي (وصمت قليلاً وأضاف) يعدل مُلْكاً.

وإن أنسَ لا أنسَ أماسيّ جعلناها دُولة بيننا، كانت تضم نخبة من أساتذة الجامعة وسواهم، وكنا نتجاذب فيها أطراف الحديث، ونعرّج على شتى مجالي الفكر والأدب.

كما لا أنسى ليالي جمعتني وإياه وحكمة هاشم بباريس، دارت خلالها أحاديث الفكر كأنها قطع الروض.

ولا أنسى، والغصة تحشرج في صدري، آخر لقاء لي معه بدمشق بمنزلة الصديق المشترك شوكة القنواتي قبل وفاته بقليل، حين شدّ أمجد على يديّ وهو يغالب رعشة يده، كما يغالب دمعةً تترقرق في مآقيه، وكأنه يعبّر عن سعادته بزياراتي التي غدت مألوفة للدكتور شوكة وهو في أواخر سني حياته.

رحمك الله أبا سامي وأجزل مثوبتك ونفع الأمة بذكراك، ذكرى العالم الفذّ، والأديب المبدع، والشاعر المطبوع «الذي لم يعرف مرحلة البرعمة» على حد قول شكري فيصل، ذكرى الإنسان المؤمن بعلمه وأمته، الصادقِ في بذله وعطائه لهما، ذكرى الإنسان الخاشع أمام محراب الحقيقة، الشامخ عزةً وكرامة ومجداً كالطود الأشم، ذكرى الخِل الأليف الوفيّ.

وأحر التعازي أقدمها لعائلتك الكريمة ولأصدقائك وسائر أبناء وطنك وأبناء الوطن العربي الكبير، من مشرقه الذي شهد انطلاقتك الرائعة في شتى الميادين، إلى مغربه حيث حطت بك الرحال وحيث أينعت قطوفك وفاضت، إلى شتى مرابعه التي كان لك فيها جميعها غرسات حملت واتأمت.

وأختم كلمتي المتواضعة هذه بأبيات من عيون شعرك أهديتَها إلى أبناء وطنك منذ سنوات بعيدة:

قالوا: سكتَّ عن الغناء فقلتُ لا ... في مسمع الأكوان رَجْع غنائي
الكون لحني، كلُّه رتّلتُه ... في نشوة الإصباح والإمساء
ألّفته من آهتي وتبسُّمي ... فاستنشِدوه يُعدْ لكم أصدائي

كلمة أسرة الفقيد

الأستاذ المهندس محمد أيمن الطرابلسي

أيها الحفل الكريم :

لقد طالت غربة أمجد الطرابلسي عن سورية، ولكنه لم يقطع صلته أبداً بها. فقد كانت وطنه الأول وذلك من جوابه على سؤال عما إذا كان يشعر بنفسه مغربياً أكثر منه سورياً فقد قال: ما قيمة ولاء رجل لوطن إذا كان قد سبق وأَخل بوفائه لوطنه الأول؟ فسورية كانت أصله ومرجعه، فكوّنته، وساعد على تكوين أجيال من أبنائها، وأعطته فأعطاها ما استطاع، وأخلص في حبها وبنائها، ولم ينس وطنه أبداً، لقد كان يحزن لكل ما يمس بها، ويفرح لأصغر نسمة تعبر بها، وكم كنت أود لو يرى اليوم أن الإخلاص متبادل، وأن وطنه أيضاً لم ينسه.

عندما رحل إلى المغرب لم تكن المغرب بالنسبة له غربة فقد وجد فيها أهلاً طيبين استقبلوه برحابتها المشهورة، ورأى بفخرٍ أبناء المغرب المعتزين بحضارتهم وعراقتهم وعروبتهم يتبحرون باللغة العربية، ويخدمونها، ورأى باعتزازٍ انتشار العديد من المكتبات وتوسع كليات الآداب التي ساهم في تأسيسها.

أحب المغرب، وأحب أهل المغرب، فردوا عليه بالوفاء والإخلاص، واعترف له طلابه بالجميل فكرموه في العديد من المناسبات، وتجاوزوا التكريم الرسمي بالمحبة الوفية الشخصية.

أذكره يحتفظ بعلبةٍ صغيرة على مكتبه فيها بعض المراسلات وصور لأطفال مغربيين سمّاهم أهلهم على اسمه «أمجد»، وظلوا يوافونه بأخبارهم وصورهم.

حياته كلها كانت أولويّات، وكان قد وضع في صدر هذه الأولويّات تكوين أجيال من الأساتذة والباحثين في اللغة والأدب العربي، فحبَّب إلى طلابه العمل والعلم، وكانوا يصفونه بأنه كان يزين علمه وإلمامه بكلامه الهادئ الوديع، ويهدي الطالب إلى الموقف العلمي المترسخ، وما هذه إلا صورة صادقة عن أسلوبه الأنسي في الحياة.

يقولون: كان شاعراً ويقولون سكت عن الغناء فهل اعتبر في جملة أولوياته وفي تواضعه المعهود أن الشعر متعة خاصة لا يجب أن تلهيه عن الأهم؟.

باسم زوجة أمجد الطرابلسي وأولاده وجميع أقربائه أود أن أختم هذه الكلمة بالشكر الجزيل والعرفان والتقدير للسادة الذين لم ينسوا ابن دمشق الغالية رغم السنين الطويلة التي غاب فيها عنهم وأخص بالشكر السيد الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية والسادة أعضاء المجمع، والسيد وزير التربية الدكتور محمود السيد، والسادة أساتذة جامعة دمشق ونقابة المعلمين وكافة السادة الذين تفضلوا علينا بكلماتٍ كان لها أطيب الأثر في نفوس أهله وإخوانه عزاءً لهم بفقيدهم.

والسلام عليكم ورحمة الله.